عَلَّمَتْنِي المِحَنُ والابْتِلَاءَات

اسم الكتاب: عَلَّمَتْنِي المِحَنُ والابْتِلَاءَات

التأليف: د. هاني درغام

موضوع الكتاب: فكر ديني

عدد الصفحات: 233 صفحة

عدد الملازم: 21 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 26607 / 2016

الترقيم الدولي: ISBN: 978 - 977 - 278 - 600 - 8

دار البشير للثقافة والعلوم

1438 هـ

2017 م

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 - 01012355714

عَلَّمَتْنِي المِحَنُ والابْتِلَاءَات

د. هاني درغام

دَارُ البَشِيرِ
لِلثقَافَةِ وَالعُلُومِ

ومضة أمل

سألني أحد إخواني ممن عاشوا معي تجربة محنتي: لو أخبرك أحد الأشخاص قبل بضعة أعوام وأنت في غمرة محنتك، ووطأة شدتك، وحِدَّة معاناتك أنك بعد بضع سنوات من الآن ستقوم بتأليف كتاب.. ماذا كنت تقول له؟

قلت له بدون تردد: قطعًا. سأتهم هذا الشخص بالجنون.

الآن، وبعد مرور ثماني سنوات على انقضاء المحنة، وزوال الغمة أصبح لي بفضل الله سبعة كتب!

مشكلة الكثير منا – وأنا واحد منهم – أننا نحبس أنفسنا في زنزانة المحنة، نتصور أنها سرمدية، ونتخيل أن المعاناة ستطول، والألم مستمر، والهم متواصل، فالمنافذ كلها مغلقة فلا يوجد بصيص ضوء، أو بريق أمل!

وننسى – ونحن ندفن أنفسنا في بئر آلامنا وأحزاننا – أن قدر الله – عز وجل – دائمًا يعمل، دائمًا يغير ويبدل، ينشيء من الألم أملًا، ويخرج النور من الظلمات، ويجعل مع العسر يسرًا، وبعد الضيق فرجًا ومخرجًا ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق:1)

إهداء

إلى صاحب هذا الكتاب..

كم تجرعت في محنتك من كئوس الابتلاء والألم!، وكم غمرتك الأحزان والهموم والأسى والندم!

وكم همس الشيطان في أذنك بأن هذه الشدة ستطول، والمحنة ستمتد، والهم سيتواصل، والألم لن يرحل، والتعاسة لن تغادر!

وكم تخلى عنك الأمل!، وهجرك التفاؤل!، وعصفت بك الظنون!، وغزا قلبك اليأس!، واقتحمه الوهن!، واستولى عليه الإحباط، وكم..، وكم.. مما ضاق به صدرك، ودمعت به عينك، وغصت به نفسك؛ حتى لم تعد تطيق الحياة.

ثم أذن الله - عز وجل - وهو اللطيف الخبير - في زوال هذه الغمة وحلول الفرج، وذهاب الضيق، وانكشاف الكرب، حتى بت تشعر أنك إنسان آخر، غير الذي كان يعاني قبل بضع سنوات. إنسان قادر على مقاومة آلامه، ومجاهدة متاعبه، ومدافعة وساوس شيطانه.

حقيقة، لم أكن أتخيل - يومًا - أني سأكتب عن المحن والابتلاء، بل لم أكن أتصور أصلًا أني سأنجح في مواصلة الكتابة بعد هذه الشدة والضراء.

وهذا الكتاب - أكتبه لنفسي - قبل أن أكتب لكم أيها القراء الأعزاء، لعل هذه الكلمات تداوي ما تبقى من علل وأسقام، وتحصن نفسي إذا نزلت بيّ الشدائد والآلام، وتمنحني قوة صلة بالملك العلام، وتفتح لي بابًا إلى الأنس والسكينة والرضا على مَر الليالي والأيام.

د. هاني درغام

قصة هذا الكتاب

رفع بصره ذات يوم إلى السماء - وهو في أوج محنته، وذروة عذابه، ومنتهى يأسه قائلًا: لماذا أنا يا رب؟، بل وصل به الحد إلى تمني الموت؛ لعجزه عن مدافعة كثرة الصدمات، واحتمال تتابع الشدائد والأزمات.

لم يكن يدري أن الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، يتقلب فيها المرء بين السراء والضراء، فيشكر في الأولى، ويصبر في الثانية؛ ليحقق وظيفة العبودية!

لم يكن يعلم وقتها أن الملك - عز وجل - يختبر إيمانه، ويمتحن إخلاصه وثباته، ويزكي نفسه ويطهره من أدرانه، ويعدَّه؛ لاكتشاف مسارب نفسه وأغواره (خفاياه)! لم يكن يعرف أن مولاه هو اللطيف الذي يخفي الخير داخل الشر، والعطاء في باطن المنع، واليسر في جوف العسر! لم يكن يخطر بباله - حينها - أن وراء هذه المحنة منحة جليلة، وأن بعد الضيق فرجًا عظيمًا، وبعد الهم والحزن فرحاً وسعادة، وبعد اليأس أملًا وتفاؤلًا!

لم يكن يتصور أنه ستنتهي هذه المحنة يومًا ما، وتذهب آلامها ومعاناتها وأحزانها، وتتحول إلى ذكرى كلما طافت بذهنه أدرك سعة رحمة الله - عز وجل - ولطفه، كما أدرك أيضًا مدى ضعفه وعجزه وقصر نظره!

لم يكن يدرك الحكمة من وراء ذلك؛ لأنه كان مسجونًا في زنزانة همومه وكرباته، محبوسًا في رحم معاناته! ولكنه حين أدرك طرفًا من سعة رحمة مولاه، وواسع فضله، وعظيم حكمته.. صاح قلبه: اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

لك الحمد أنت الرب الغني القادر العزيز، وأنا العبد الفقير العاجز الذليل.

لك الحمد على كل نعمة أنعمت بها عليّ منذ لحظة الولادة، وحتى لحظة الوفاة.

اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ودبر لي شئوني كلها، فإني لا أحسن التدبير لنفسي.

مقدمة الكتاب

الحمد لله الجليل ثناؤه، الجميل بلاؤه، الجزيل عطاؤه، القاهر سلطانه، الباهر إحسانه، البادية حكمته، الشاملة رحمته، المأمول عطفه، المحذور سطوه. أحمده على ما أسبغ من النعمة، وظاهر من المنّة، وأسبل من الستر، ويسّر من العسر، وقرّب من النجاح، وقدّر من الصلاح، حمدًا يقضي الحق المفروض، ويقتضي المزيد المضمون.

سبحانك ربي. الرغباتُ بك موصولة، والآمال عليك مقصورة، والوجوه لوجهك عانية، والأرواح إليك مَشوقة، والنفوس إلى كهف غيبك مَسوقة، والأماني بك مَنُوطة، والأيدي نحوك مبسوطة، والهمم إلى طلب مرضاتك مرفوعة، وآلاؤك عند جميع الخلق مشهودة ومسموعة.

سبحانه. هو الإله العظيم، والرب الرحيم، والجواد الكريم، والسميع العليم، يملك العالم كله، وما بعده، وما قبله، وله فيه تصاريف القدرة، وخفِيّات الحكمة، ونوافذ الإرادة.

لا يخيب من أمّله، ولا يرد من سأله، ولا يقطع مَن وصله، ولا يبخس من عامله، ولا يسلب من شكره، ولا يخذل مَن نصره، ولا يوحِش من استأنس بذكره، ولا يُسْلم من استسلم لقهره، ولا يكل مَن توكل عليه، ولا يهمل من وثق به والتجأ إليه، ولا يضل من استمسك بكتابه، ولا يذل من لاذ بجنابه.

أما بعد..

في حياة كل واحد منَّا سجلٌّ حافل بالمواقف والأحداث التي تعرض فيها لمحنة خانقة، وبلية شديدة تكاد تعصف شدة أمواجها بجدران إيمانه، وتضعف قوة صلته بربه، وقد يستبد به القلق والاضطراب، أو يستولي عليه اليأس والإحباط، وقد يهمس الشيطان في أذنه بأن المحنة ستطول والكرب ممتد واليأس مستوطن، ويوهمه بأن الله - تعالى - تخلى عنه، وتركه شريدًا طريدًا في صحراء قاحلة تفترسه وساوس الشيطان، فلا يقوى على المواجهة أو المقاومة، فيصبح ساعتها بين أمرين: إما أن يترك نفسه فريسة، لأوهام الشيطان؛ فيتنقل من ضيق إلى هم، ومن يأس إلى اكتئاب، أو قد يثور إيمانه وتنتفض جوارحه، ويهزم شيطانه، ويسارع إلى محراب العبودية يشكو لمولاه ضعفه وعجزه، يبثه شكواه وألمه، يشرح له كل شيء يدور بداخله، وقد يكتفي بآهاته ودموعه؛ لتعبر عن شدة معاناته واستسلامه.

ثم ما هي إلا أوقات - تطول أو تقصر - حتى تتفجر ينابيع الأمل وتشرق أنوار الرجاء، وتزول المحنة، وينكشف الكرب، ويتحول الضيق إلى سعة والعسر إلى يسر، وتكتشف أن ما مررت به من شدة ومحنة، وما تجرعته من مرارة الألم؛ يحمل في طياته الخير الوفير، والنفع العظيم، واللطف الكبير، والحكمة العظيمة، ولكنك حبست نفسك في زنزانة ضيقة من الأوجاع والآلام، ولم تبصر المنن في ثنايا المحن.

- الآن، بعد زوال المحنة اكتشفت أن المنع عطاء، وأن مع العسر يسرًا، وأن لطفه تعالى لم يفارقك لحظة، وأن المحنة قد فجرت طاقاتك وأظهرت قدراتك وغيرت تفكيرك لكل ما حولك، وأن مشاعر الجزع والسخط والأسى، التي انتابتك حينها تحولت إلى رضا وسعادة وامتنان، وفتحت لك بابًا لتذوق حلاوة الإيمان وحسن الظن بالله - عز وجل - صاحب الجود والإحسان!
- الآن، فقط، أصبحت ترى الدنيا على حقيقتها، دار ابتلاء وامتحان لابد فيها من المنغصات والمكدرات والمزعجات والمقلقات؛ لتختبر إيمانك، ويشتد عودك؛ فتصبح أكثر زهدًا فيها وانصرافًا عن زينتها وزخارفها!
- الآن، فقط، أصبحت ترى الآخرة هي الحياة الحقيقية التي ينبغي أن تُصرف لها كل الجهود والطاقات، وتُبذل في سبيل الفوز فيها كل الأموال والأوقات، وأن تتحمل من أجلها كل الصعوبات والمشقات!
- الآن، فقط، أصبحت ترى نفسك عبدًا مملوكًا لله - عز وجل - يفعل به ما يشاء، لا يحق لك الجزع أو الاعتراض، وكيف تجزع!، وقد جربت جميع اختياراته من قبل فوجدت فيها الخير والأمان، ولكنك فقدت نظارتك الإيمانية التي تمنحك رؤية ألطافه ورحماته!

- الآن، فقط، أدركت أن المحن والابتلاءات لا تأتي لتعذبك، ولكن؛ لتهذبك وتطهر قلبك من آفاته، وتسمو بروحك، وتعلمك درسًا لن تنساه، وهو أن ضعفك سر قوتك، وذلّك مفتاح عزتك، وقربك من مولاك؛ هو سبيل سعادتك، وأن إيمانك هو العاصم لك من شيطانك، وأنه في غياب الإيمان أو ضعفه؛ تصبح نظرة الإنسان للحياة سوداء قاتمة، لا تعدو كونَها أحزانًا ومصائبَ وفقرًا وأمراضًا وبلايا، فهو ينتظر المصيبة، ويتوقع البلوى، ويترصد الفاجعة.

أخي القارئ،

لقد مررت بمحنة شديدة استمرت بضع سنوات عشت خلالها بين اليأس والأمل، والقلق والاطمئنان، والتفاؤل والتشاؤم، والرضا والجزع. انتصرت على الشيطان في جولات وهزمني في أخرى. أيقنت تارة أن التضرع والدعاء هما السبيل للفرج والنجاة، وأقنعني الشيطان بعدم جدوى الدعاء تارة أخرى.

تذوقت لذة القرب وحلاوة الأنس تارة، وتجرعت مرارة الوحشة والحرمان تارة أخرى، خسرت أشياء كثيرة في حياتي، ثم عوضني الله - عز وجل - بخير منها.

تعلمت من محنتي أن الألم الحقيقي هو ألم البعد عن الله - تعالى -، الملاذ الآمن في الشدة، والأنيس في الوحدة والغربة. فإذا فقدته، فكيف تتحمل العيش في هذه الحياة المليئة بالحفر والأشواك والمطبات والعقبات؟!

وتعلمت منها، أن أصعب أنواع المجاهدة، مجاهدة النفس. ألا تفقد الأمل رغم اشتداد المحن وتتابع الأزمات، وتعاقب الشدائد، وتكاثف سحب اليأس، وتأخر الفرج ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ **(العنكبوت:69)**

وتعلمت منها، أن المرء لابد أن يفتش في دفتر ذكرياته عن هذه اللحظات التي تألم فيها كثيرًا؛ ليتأمل كيف أحاطت به نسمات الرحمة والكرم الإلهي؛ فأخرجته من زنزانة المحنة إلى واحة الأمل؛ لأنه – يومًا ما – ستتحول تجربتك الأليمة إلى ذكريات كلما مرت صورتها بذهنك تذكرت كم كانت غنية وثرية هذه التجربة بالدروس والخبرات!، وكم كانت تحوطها الألطاف الإلهية والرحمات الربانية!، وحينها ستردد: يا لها من تجربة عظيمة – رغم آلامها – فقد صنعت مني شخصًا آخر قادرًا على مواجهة التحديات والأزمات بشكل أفضل!

لقد عشت طويلًا في زنزانة المحنة، أجتر آلامي وأتقلب على فراش معاناتي لا أبصر أملًا، ولا أتوقع فرجًا، قبل أن تتداركني الرحمة الإلهية، واللطف الرباني.

لقد كنت دومًا أخاطب نفسي: ويحك يا نفس!

أتظنين أن الملك – عز وجل – يتركِك فريسة لآلامك وأحزانك وهمومك، وأنتِ تتذلّلين على أعتابه وتنكسرين في محرابه!

أتظنين أنه – سبحانه – لا يعلم مدى عجزك وفقرك وضعفك؟!

أو كلما طالت المحنة وزادت الشدة وتأخر الفرج، لوَّن اليأس قلبك واستسلمت؛ لوساوس شيطانك؟!

ألم يخبرك – سبحانه – في كتابه أنها دار امتحان واختبار؟

أتظنين أن هذه المحنة سرمدية لن تزول ولن تتحول عنك، ألم تزدهر حياتك قبل هذه المحنة بالرخاء والعافية والسكينة؟

الآن، بعد أن تحولت المحنة إلى ذكريات، وزالت الآلام والصعوبات، عدت مرة أخرى لهذه الفترة العصيبة من حياتي أتأمل فيها، وأبحث عن أهم ما تعلمته منها من خلال مشاهدات المحنة نفسها، أو من خلال تدبري لآيات في كتاب ربي كانت تتنزل على قلبي بردًا وسلامًا، أو من خلال خلاصة جهد ما كتب السابقون واللاحقون من حكم وخبرات وتجارب[1]، أو من خلال ما تعلمته من قراءة سير الصالحين ومتابعة أحوالهم.. فجمعت ما دونته من ملاحظات، وأضفت عليه ما قرأته في بطون الكتب من عصارة خبرات، فكان هذا الكتاب الذي بين يديك.

أسأل الله – تعالى – أن يتقبل مني هذا الكتاب، ويجعله عونًا لكل من أرهقته الشدائد، وطالت به الكربات، وعصفت به المحن؛ عله يجد فيه ما يخفف عنه آلامه، ويؤنس وحدته ووحشته، ويقوي صلته بربه، ويعيد شحنات الأمل إلى قلبه، ويمنحه مناعة ضد الجزع والسخط واليأس والقنوط.

---

(1) من أكثر الكتب التي اصطحبتها في فترة الابتلاء كتاب(الحكم العطائية شرح وتحليل – للبوطي)، وكتاب (في ظلال القرآن – سيد قطب). وقد وجدت فيهما بلسمًا شافيًا لكثير من الآلام المضنية، وجوابًا كافيًا لكثير من التساؤلات الحائرة، ولعلك أخي القارئ تجد أنهما من أكثر الكتب التي نقلت عنهما في كتابي هذا.

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

(إن شـعور الإنسـان بأنه مبتلى وممتحـن بأيامه التي يقضيهـا علـى الأرض، وبكل شـيء يملكـه، وبكل متـاع يتاح له، يمنحه مناعة ضـد الاغترار والانخداع والغفلة، ويعطيه وقاية من الاستغراق في متاع الحياة الدنيـا، ومـن التكالـب علـى هـذا المتـاع الـذي هو مسؤول عنه وممتحن فيه)[1]

(سيد قطب)

(1) في ظلال القرآن ج 3/ 1770

خلق الإنسان بين العبادة والابتلاء:

قضت مشيئة الله – تعالى – وحكمته أن يخلق الإنسان ويستخلفه في الأرض؛ من أجل غاية محددة، ووظيفة أساسية، وهي عبادته ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (**الذاريات:56**).

والعبادة هي الإذعان الكلي والخضوع الكامل والطاعة المطلقة لله – عز وجل – عبر الالتزام بما شرعه سبحانه، أمرًا ونهيًا، تحليلًا وتحريمًا.

وهذه العبادة تنبثق من شعور الإنسان بعبوديته ومملوكيته لله – عز وجل –، ذلك أن في فطرة الإنسان حاجة ملحة، ورغبة دائمة في الانكسار والتذلل والافتقار لخالقه ومولاه، وهذا الشعور هو الذي يدفعه للمسارعة إلى مرضاته، وتجنب سخطه، وإيثار طاعته، وابتغاء قربه، واتباع هداه.

هذا الشعور الفطري يحتاج إلى مناخ مناسب ووسط ملائم؛ ليترجم مشاعر عبوديته ويفصح عن صفاء هويته. هذا المناخ هو الابتلاء.

لذا كان لابد للإنسان أن يمر بسلسلة متتالية من الامتحانات والاختبارات يرى من خلالها قدرته على النجاح أو الفشل في اختبار العبودية، فيترجم عبوديته إلى ممارسة عملية عبر الصبر في الشدة والضراء، والشكر في الرخاء والسراء.

وهذا ما كشف عنه البيان القرآني بوضوح وجلاء، في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود: 7)، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الكهف:7)، وقوله أيضا: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ (الملك 1 - 2). فبيَّنت الآيات السابقة حكمة الخلق وغاية العبادة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1] وأحسن عملاً تعني الاستثمار الأمثل والاستخدام الأفضل لما وهبه الله – عز وجل – للإنسان من مواهب وملكات وطاقات، وبما سخره له من زينة ومشتهيات، بما يحقق على أرض الواقع العمل الأحسن، والكلمة الأحسن، والخُلقُ الأحسن، والفكر الأحسن.

ويقال: أحسن الأعمال ما كان صاحبه أشدّ إخلاصًا فيه.

ويقال: أحسنهم عملًا أبعدهم عن ملاحظة أعماله.

ويقال: أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار.

ويقال: أحسن الأعمال ما لا يطلب صاحبه عليه عوضًا) [2]

---

(1) ذكر أبو السعود – رحمه الله – في تفسيره: (وحسن العمل: الزهد فيها (أي: الدنيا)، وعدم الاكتراث بها، والقناعة باليسير منها، وصرفها على ما ينبغي، والتأمل في شأنها، وجعلها ذريعة إلى معرفة خالقها، والتمتع بها حسبما أذن الشرع، وأداء حقوقها، والشكر على نعمها، لا جعلها وسيلة إلى الشهوات والأغراض الفاسدة، كما يفعله الكفرة وأهل الأهواء). (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج5 / 205)

(2) لطائف الإشارات، ج 4 / 50 – الإمام القشيري

الشهوات مادة الابتلاء:

ذلك أن مادة الابتلاء التي يُمتحن فيها الناس، هي زينة الأرض وشهواتها كما أخبرنا سبحانه في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (**آل عمران**:14)

إن هذه الشهوات حين تنضبط فى حدودها التى حددها الله، تصبح غذاءً صالحًا مفيدًا للنفس، ولا تعود سمًّا مهلكًا، ولا همًّا مقعدًا مقيمًا، لا يرتوي ولا يشبع، ولا يدع للنفس فرصة للسكينة والهدوء، ذلك أن النفس إذا اتبعت إغراء هذه الشهوات - وهي لكونها محببة ومزينة تغري بالمزيد- فإنها تستثقل التكاليف، وتشق عليها العبادات، وتضعف عن أداء الطاعات، فهي ترى في الالتزام بما شرعه الله مانعًا يعوقها عن تحقيق أكبر قدر من الشهوات، تتوهم فيه مزيدًا من السعادة والراحة.

إن الإنسان مضطر في هذه الحياة أن يتحمل مكابدة الشدائد والمشقات، ومدافعة الأهواء والشهوات، وتجاوز الحفر والأشواك والعقبات. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ (**البلد**:4)، فهو يقاسي ويعاني في رحلة البحث عن الشهوات والظفر بها، كما يعاني أيضًا عند الحرمان منها وفوات تحصيلها، وفي رحلة معاناته تلك يتقلب بين المنع والعطاء، الضيق والسعة، فيصبر في الأولى، ويشكر في الثانية، وبذلك تتحقق عبوديته، وينجح في اختبار العبودية والاستسلام لله.

وإدراك العبد لهذه الحقيقة- أعني أن الشهوات هي المادة الامتحانية التي شاء الله أن يبتلي بها عباده - وما يترتب على ذلك الامتحان من مسئولية وجزاء؛ هو الذي يصونه عن الاغترار بها والركون إليها، حتى يكون أهلًا للدخول في رضوان الله والفوز بجنته.

ولعلك تسأل لماذا ابتلى الله - تعالى - عباده بمحبة الشهوات والميل إليها، رغم أنها قد تصرف أكثر الناس عن سبيل الإيمان!؟

الجواب كما ذكر د. محمد البوطي - رحمه الله - في حكمتين رائعتين:

(**الحكمة الأولى**: إن النوازع الروحانية السامية في حياة الإنسان، تشكِّل أحد جناحيه فقط في سلم الرقي إلى مرضاة الله - تعالى -، أما جناحه الثاني فهو غرائزه وشهواته الحيوانية، فهو بهما معًا يرقى ويرتفع، وينهض إلى مستوى التكريم الذي رشحه الله - تعالى - لبلوغ مرتبته.. وإنما تتحول الغريزة الحيوانية في حياة الإنسان إلى سلاح بيد الشيطان؛ عندما تتجاوز حد التوازن مع نوازع الفطرة وأشواق الروح. وكما يتاح للإنسان أن يتسبب في طغيان الغريزة الشهوانية في كيانه، يتاح له بالقدرة - ذاتها - أن يتسبب في ضبطها وإعادتها إلى الحد السليم.وإذا كان الشيطان هو الذي يغري الإنسان بأن يذهب في الاستجابة لشهواته إلى حدّ الطغيان، فإن الله هو الذي يعينه في لجمها وإيقافها عند حدودها المشروعة، وإنما يتوقف الأمر على أن يستنجد بالله - تعالى - ليعينه في لجمها، كما استسلم من قبل للشيطان؛ ليسلطها بطغيانها عليه.

الحكمة الثانية: أن من لطف الله - تعالى - بعبده أن يذكره دائمًا بضعفه وعجزه؛ ليقوده ذلك إلى التوجه إلى ربه، يسأله ليعطيه، ويستنجد به لينجده، ويستعين به ليعينه.

ومن مظاهر ضعف الإنسان، تسلط غرائزه الشهوانية عليه، في كثير من الظروف والحالات، بحيث تختفي أمامها كوابحه العقلية وتشلّ قدراته الإرادية. فشأن المؤمن بالله - تعالى -، إذا تنبه إلى ضعفه هذا، ورأى خطر طغيان الشهوات كيف يدنو إليه ويحدق به، وأدرك عجزه عن لجمه ومقاومته، أن يفرَّ إلى الله - جل جلاله - يستنجد به ويلجأ إليه، ويدعوه أن يردَّ عنه غائلة (فساد وشر) أهوائه وجموح رغائبه. وشأن الله - عز وجل - أن ينجده فيما استنجد به من أجله، وأن يدخله في كلاءته وحرزه، وأن يستجيب دعاءه فيقيه من شر شهواته وأهوائه)[1]

وما أجمل ما ذكره الإمام ابن القيم - رحمه الله -: (ليس العجب من قلب خالٍ عن الشهوات والإرادات، قد ماتت دواعي طبعه وشهوته، إذا عكف على محبوبه ومعبوده واطمأن إليه واجتمعت همته، وإنما العجب من قلب قد ابتلي بما ابتلي به من الهوى والشهوة ودواعي الطبيعة، مع قوة سلطانها وغلبتها، وضعفه وكثرة الجيوش التي تغير على قلبه كل وقت؛ إذا آثر ربه ومرضاته على هواه وشهوته ودواعي طبعه، فهو هارب إلى ربه من بين تلك الجيوش، وعاكف عليه فى تلك الزعازع (الرياح الشديدة)

---

(1) الحكم العطائية شرح وتحليل ج3 / 535 - 536 بتصرف.

والأَهوية (جمع هواء)، التي تغشى على الأسماع والأبصار والأفئدة، يتحمل منه؛ لأجل محبوبه ما لا تتحمله الجبال الراسيات) [1]

وهكذا كان لزامًا على الإنسان للوصول إلى الأحسن في العمل والارتقاء في درجات الطاعة وميادين الخيرات؛ أن يواجه صراعًا بين أشواق روحه، التي تتوق إلى الارتقاء في منازل الإيمان ومدارج التقوى، وبين نزعات جسده التي تشده إلى الأرض بسلاسل الشهوات وجواذب المغريات.

حكمة الابتلاء: يمكن فهم حكمة الابتلاء وفلسفته، من خلال إدراك حقيقتين هامتين:

1- الدنيا دار تكليف:

لما كان الابتلاء هو المظهر العملي للعبودية يُختبر المرء من خلاله؛ لتحقيق العمل الأحسن، اقتضى ذلك بالضرورة أن تكون الحياة الدنيا قاعة امتحان كبرى، يُمتحن فيها المرء بالسراء والضراء، والشدة والرخاء، ويتقلب فيها بين اللذائذ والآلام، والمنح والمحن، والقوة والضعف، والسعادة والشقاوة، والعوز والرفاهية، والنجاح والفشل، حتى ينجح العبد في غرس شجرة العبودية، وقطف ثمارها العذبة الشهية في الدنيا قبل الآخرة.

فإذا كانت الحياة الدنيا نعيمًا مقيمًا صافيًا عن المنغصات، خاليةً من الشوائب والأكدار، لا مكان فيها للألم والحزن، والهم والتعب، والمشقة

---

(1) تقريب طريق الهجرتين للإمام ابن القيم – إعداد الشيخ صالح الشامي ص 629 – 630

والضيق؛ فكيف يمارس العبد عبوديته وسط مناخ لا يستشعر فيه فقره وضعفه وعجزه!، ولا يجد فيه ما يلجئه إلى التذلل والانكسار؟ كيف يرتقي في مدارج الإيمان ومراتب الإحسان، ويتذوق حلاوة الإيمان!؟

2- الآخرة دار حساب وجزاء:

إن علاقة الإنسان بالحياة الآخرة هي علاقة مسئولية وجزاء، فإذا انتهت مدة الحياة المقررة لابتلاء الإنسان واختباره؛ طُويت قاعة الامتحان (أي: الأرض) وحل محلها عالم الآخرة؛ حيث المستقر النهائي لرحلة الإنسان، وفرز نتائج الابتلاء، وتقسيم الناس إلى سعداء وأشقياء.. ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ **(هود** 106 - 107**)**.

والموت هو البوابة التي يعبر منها الناس من حياتهم الدنيا إلى الحياة البرزخية، التي هي مقدمة لحياتهم الآخرة ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ **(العنكبوت:**57**)**

فالموت هو النهاية الحتمية التي تقطع آمال المتعلقين بزخارفها، وتنسف طموحاتهم الوهمية في نيل خلود في هذه الدار. لذا كان من الحكمة ألا تكون حياتنا الدنيا - وهي بمثابة معبر إلى الآخرة - مليئة بالنعم والمتع والملاذ الصافية من الآلام والمنغصات، بل لابد أن تكون محشوة بالمزعجات والكدورات، حافلة بالمتاعب والمقلقات حتى لا ينخدع الناس بها، وينسون أنها استراحة في طريق مسافر، متاعها زائل، ولذاتها وقتية، فتتعلق قلوبهم بالآخرة، فلا يأسون على ما فاتهم من

الرغائب أو أصابهم من المصائب، ولا يبالغون في الفرحة بما يتحقق لهم من الشهوات والأهواء، فتتجه طموحاتهم وآمالهم إلى الحياة الآخرة، وما أعده الله - تعالى - فيها لعباده الصالحين من ألوان النعيم الذي لا حدّ ولا نهاية له. فما أرحم ربنا وما أرأفه - سبحانه - بنا؛ حيث جعل كل ما في هذه الحياة من مصائب وآلام وشدائد تذكرةً لنا بحقيقة الحياة الدنيا وطبيعة مهمتنا فيها؛ حتى يرتقي العبد عبْرَ هذه الشدائد في مدارج السمو والكمال. ولله در القائل في التحذير من الاغترار بالدنيا والترغيب في نعيم الآخرة:

صَفَاؤُهَا كَدَرٌ سُرُورُهَا ضَرَرٌ ... أَمَانُهَا غَرَرٌ أَنْوَارُهَا ظُلَمُ
شَبَابُهَا هَرَمٌ رَاحَاتُهَا سَقَمٌ ... لَذَّاتها نَدَمٌ وُجْدَانُهَا عَدَمُ
فَخَلِّ عَنْهَا وَلا تَرْكَنْ لِزَهْرَتِهَا ... فَإِنَّهَا نِعَمٌ فِي طَيِّهَا نِقَمُ
وَاعْمَلْ لِدَارِ نعَيمٍ لا نَفَادَ لَهَا ... وَلا يُخَافُ بِهَا مَوْتٌ وَلا هَرَمُ

من ثمرات الابتلاء:

إن مادة الابتلاء في هذه الحياة الدنيا هي زينة الأرض وشهواتها، وهي إما أن تكون سبيل سمو وارتقاء أو هبوط وانتكاس، وبحسب الاستثمار الأمثل لها تصل إلى العمل الأحسن في كافة ميادين الطاعات، فترتقي في مدارج العبودية ومنازل التزكية.

وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً

(اللحظة التي تدرك فيها أن السراء والضراء، واللذائذ والآلام، والشدة والرخاء لها دورٌ هامٌّ في التعبير عن إخلاص عبوديتك وصدق دعاوى محبتك عبر تقوية جناحي الصبر والشكر؛ لحظة فارقة في ولادة إيمانك ونيل سعادتك).

الإنسان بين السراء والضراء:

قال الله - عز وجل -: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ (الأنبياء:35) [1] من سنن الله - تعالى - في عباده أن تكون الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان، تتمازج فيها مظاهر الشدة والرخاء، وتتجاور فيها المصائب والنعم، ويتقلب المرء فيها بين اليسر والعسر، والغنى والفقر، والصحة والمرض. وذلك من أجل أن يحقق العبد العبودية الخالصة لله بالسلوك والاختيار، كما قد قضى الله - عز وجل - عليه بالعبودية له بالخلق والاضطرار، وذلك عبر تحقيق الصبر في الضراء، والشكر في السراء، وبذلك يستكمل العبد تشييد بنيان الإيمان، ويرتقي في درجاته بما يحميه من الهزة النفسية في لحظات الشدائد، ويبعد عنه مطارق الغفلة في لحظات الرخاء.

وإلى ذلك أشار النبي - عليه الصلاة والسلام - في قوله: (عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)[2]، ولكن أكثر الناس عندما تحدثه عن الابتلاء يحصره في نطاق الشدائد

---

(1) قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في معنى هذه الآية:(نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال) (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج5/ 342)

(2) رواه مسلم (2999)

والصعاب والآلام والمتاعب فقط، غافلين - أو متغافلين - عن أن اغداق النعم وكثرة الأموال ووفرة المتع وطول العافية؛ ابتلاء أيضًا!

ابتلاء أصعب وأشق من ابتلاء الشدة والضراء؛ فالمرء في الضراء يتجه بكل كيانه وقلبه وجوارحه إلى مولاه، فلا ملجأ له إلا إليه ولا مفزع إلا له، ولا صبر على الألم والمتاعب إلا بتوفيقه ومعونته، أما في السراء فإن النعمة تغر صاحبها وتسكره نشوتها، فتهجم عليه قوارض الغفلة وتدفعه إلى البطر والاستعلاء!

وهذا ما يؤكده الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - فيقول:

(إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير. كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة، ويكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهم الجامحة في أوصالهم. كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان، وما يغريان به من متاع، وما يثيرانه من شهوات وأطماع!. كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء!. إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة؛

لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخي الأعصاب، وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة!) [1]

فالقيام بعبودية الشكر في أوقات السراء يحتاج إلى رصيد كبير من الصبر؛ لمقاومة نوازع النفس وفطمها عن التعلق بالشهوات والاغترار بها. ومن ثم، استخدام النعم فيما يحب الله ويرضى وفق منهجه الذي رسمه لعباده، وعدم استعمالها فيما يجلب سخطه ونقمته.

وأضرب لك مثالاً يوضح هذه الحقيقة: (إن الفقير الذي لم يكن له في فقره اختيار، ليس أمامه لمعالجة ذلك إلا سبيل الصبر، شاء ذلك أو لم يشأ، أما الغني الذي يملك بغناه مفاتيح الشهوات والملاذ المختلفة التي يدري طعمها ويعلم مدى ما تهفو نفسه إليها، ثم يستعلي فوقها ولا يتلقف منها إلا ذلك النذر اليسير الذي يخضع للشروط والقيود الشرعية التي وصفها الله - عز وجل - ؛ فإن له من فضيلة هذا السلوك الاختياري ما يجعله في مرتبة أسمى من ذلك الفقير الذي لم يكن له في فقره أي اختيار.

من أجل هذا؛ أجمع جمهور العلماء على أن الغني الشاكر أفضل عند الله - تعالى - من الفقير الصابر، إذ الحقيقة أن كلاهما صابر، ولكن أحدهما صابر عن شيء يملك أن يناله ويستمتع به، والثاني صابر عما لا يملك سبيلًا للحصول عليه) [2]

---

(1) في ظلال القرآن ج4/ 2377 - 2378

(2) الإنسان وعدالة الله في الأرض ص 16 - د. محمد البوطي

وهل يتصور المرء أن الشيطان سيتركه يجتاز اختبار النعمة بسهولة دون أن يزرع في طريقه أشواك الغفلة؛ ليصده عن الشكر، ويشغله بنشوة النعم عن رؤية المنعم سبحانه، فتنزلق قدمه في متاهات الكبر والعجب والغرور؟!

ألم يحدد الشيطان هدفه الرئيس من الإغواء والإضلال، وهو صرف العباد عن الشكر ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (**الأعراف**: 17)

العطاء والمنع بين التكريم والإهانة:

وقد نتج عن هذا الفهم الخاطىء لعلاقة الإنسان بالابتلاء إلى تصور كثير من الناس أن بسط العطاء والتوسعة في الرزق بكافة صوره وألوانه؛ دليلٌ على استحقاق الكرامة وعلامة على الاصطفاء والقرب، بينما منع العطاء والتضييق في الرزق دليل السخط والمهانة والإهمال!. وهذا تصور سقيم وجهل فاضح، نشأ عن الخلط بين الامتحان ونتيجة الامتحان. فالعطاء والمنع كلاهما امتحان من الله – عز وجل –، ونتيجة الامتحان تتوقف على سلوك المرء الاختياري بالصبر أو الجزع في المنع، والشكر أو الكفران في العطاء.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ (**الفجر**15 - 20)

فيا لبؤس المرء الذي يظن أنه إذا امتلك السيارة الفارهة أو الفيلا الأنيقة أو الأموال الكثيرة أو الوظيفة المرموقة، يكون قد نال من الله – تعالى – الرضا والقبول، غافلًا عن أن قيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عرض الدنيا وشهواتها، ورضَا الله أو سخطه لا يستدل عليه بالعطاء والمنع في هذه الأرض، فهو يعطي الصالح والطالح، ويمنع الصالح والطالح، ولكن ما وراء هذا وذلك، هو الذي عليه المعول، إنه يعطي؛ ليبتلي ويمنع، والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء!

ولقد نجح سليمان – عليه السلام – في اختبار السراء عندما تكاثرت عليه نعم الله – تعالى – وفاضت منحه وعطاءاته بما لم يعط لأحد من قبله ولا من بعده، فهتف من أعماقه في ضراعة وخشوع: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (**النمل**:40)، بينما فشل قارون عندما اغتر بكنوزه وثرواته، وظن استحقاقه لها بعلمه وجهده وحسن تدبيره، فقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ (**القصص**: 78) [1].

ولهذا؛ فلا بدّ للإنسان من اعتبار النعمة اختبارًا وامتحانًا، لا كرامةً وامتيازًا.

(1) لنا عودة مع نموذج سليمان – عليه السلام – (الشاكر)، ونموذج قارون (الجاحد) عند الحديث عن الشكر تحت عنوان ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾

من أسرار الابتلاء بالضراء:

قال الله – عز وجل –: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157) ﴾ (البقرة 155 - 157) [1].

ففي هذه الآية، ذكر الله – تعالى – صورًا من الشدائد والمصاعب التي يبتلي بها عباده؛ ليوطنوا أنفسهم على مواجهتها بإيمان راسخ وإرادة قوية وعزيمة فتية، فهذه المصائب لم تأت لتعذبهم؛ وإنما تهذبهم، لتصفو نفوسهم، وتتطهّر من الأدران أرواحهم، ويعتادوا مقاومة الصّعاب وتحمّل الصّدمات بما يمنحهم مناعة قوية تستطيع أداء واجبات العبودية، ومواجهة كل ما يعوقهم عنها من عقبات بصبر وشجاعة وثبات يدفعهم للتضحية بأنفسهم في سبيل انتصار الإيمان واستعلاء العقيدة.

(وأول تلك الابتلاءات (الخوف)، وإنما بدأ القرآن به؛ لأنه غريزة

(1) قال الشيخ السعدي – رحمه الله – في تفسير هذه الآية: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾، وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك. ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر ببرد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد ونحوه) (ج1/ 180)

مستقرة فى النفس، لاصقة بالفؤاد، تولد مع المرء منذ ولد، وتتحرك لأدنى مؤثر، وتتولد عنها الأوهام والخرافات، فإذا استطاع الإنسان أن يكبح جماحها، وألا يتأثر بمثيراتها خمدت وسكنت، وذهب من نفسه ما تولد عنها من الجبن والوهم والخرافة، وصار شجاعًا قويّ النفس بعد أن كان رعديدًا خائر العزيمة، وبذلك يحسن استعداده النفسي، وتكون الصدمات التي تلي هذه الصدمة أقل منها أثرًا وأضعف خطرًا، يلي ذلك: (الجوع) وإنما ثنّى به القرآن الكريم، لأنه ألم الجسم، فإذا تعوّد الإنسان مقاومة دواعيه، والصبر على حرارته، فقد قوي جسمه، وصلب عوده، وانضمت قوة جسمه بمقاومة الجوع إلى قوة روحه بمقاومة الخوف، فكان إنسانًا كاملًا جسمًا وروحًا.

(وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ)، وهو الصبر على مفارقة المألوفات من مظاهر البيئة القريبة إلى الشخص، الحبيبة إلى النفس، وللألفة على القلب سلطان، ولها فى النفس منزلة، هذه المألوفات التى تعوق الإنسان عن العظائم، وتحول بينه وبين الجد فى المطالب يريد القرآن أن يعوّد الأمة الصبر على مفارقتها، وعدم الركون إليها؛ حتى يتحرّر الإنسان حرية كاملة؛ وحتى لا يقف شيء دون وصوله إلى الغاية) [1].

لذا كان موقف المؤمنين الصادقين إزاء هذه الابتلاءات هو الصبر عبر تذكر عبوديتهم، ومملوكيتهم لله - عز وجل -، فيهتفون في رضا وتسليم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

---

(1) نظرات في كتاب الله، ص 204 - الإمام حسن البنا

ومعنى ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾: أي أننا ملك له – تعالى – يتصرف فينا كيف يشاء، وأمورنا بين يديه يصرفها كما يشاء، وعلينا أن نتقبّل ذلك بكلّ رضى من دون اعتراض، وأن نؤمن بأنه – في موقع رحمته – لا يريد بنا إلَّا خيرًا مما يقرّبنا إلى المصلحة ويبعدنا عن المفسدة، وهو نعم المعتمد في كشف الضر وإزالة الكرب، وإنه مَلَكَنَا بخلقه وتقديره وتصريفه فينا وله الأمر والتدبير.

﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ فسنرجع إلى اللّه – تعالى – في نهاية المطاف، فنجد عنده الخير الكثير والنعيم العظيم، الذي نحصل فيه على كلّ ألوان السعادة التي يتلاشى معها كلّ حزن وألم مما عشناه في الحياة، وبذلك لا يبقى لآلام الحياة قيمة في إحساسنا الذاتي، لأنَّ انتظار لقاء اللّه في روح رضوانه ونعيم جنته؛ يطرد كلّ المشاعر الذاتية الخائفة والحزينة والقلقة في أجواء المصائب، وفي ذلك عزاء أي عزاء، وسلوى عن البلاء!

ولقد روى مسلم بسنده عن أم سلمة، أن رسول الله – ﷺ – قال: (ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله – عز وجل –: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾. اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها) (1).

ولعل هناك سؤالًا يدور في ذهنك وهو.. على أي أساس يتنوع هذا الابتلاء فيكون نصيب أناس منه وفرة المال أو الصحة أو الجاه ونصيب آخرين الفقر أو المرض؟ أقول لك: إن الله – عز وجل –

(1) رواه بهذا اللفظ مسلم: كتاب الجنائز: باب ما يقال عند المصيبة (1525).

يتصرف في ملكه وفق حكمة عظيمة، لا تدركها عقولنا القاصرة في أكثر الأحيان، فهو أعلم بما يصلح عباده وينفعهم في الدنيا والآخرة بقطع النظر عن موافقة أفعاله - سبحانه - لأهواء الناس أو عدم موافقته إياها، فهو يبتليهم ويربيهم بما ينفعهم، ويحقق مصلحتهم سواء علموا ذلك أو جهلوه.

يقول رسول الله – عليه الصلاة والسلام –: (إنَّ الله ليحمي عبدَه المؤمن من الدنيا وهو يحبُّه، كما تحمون مريضكم الطعامَ والشرابَ؛ تخافون عليه) [1].

ألا ترى إلى الطفل يحرمه أبويه من كثير مما تتوق نفسه من اللذائذ والطيبات من أجل مصلحته وعاقبة أمره رغم تبرمه وضيقه؛ لجهله وقصور نظره. ولله المثل الأعلى، فهو سبحانه أعلم بحال عباده، وبما يجر لهم الخيرات، ويبعد عنهم المفسدات.. ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (الملك:14).

بقي أن أقول لك إن المؤمن الذي أشرقت أنوار الإيمان في قلبه واغترف من معين أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، يدرك أن المنع والعطاء كلاهما يصلانه بربه ويدنيانه من جنة معرفته والأنس به، ففي العطاء يشهد صفات بره ولطفه وإنعامه، وفي المنع يشهد صفات قهره وسطوته وسلطانه، فيكون حاله في ذلك كله التسليم والرضا والثقة بحكمة الله – تعالى – ولطفه.. وهذا ما توصل إليه ابن عطاء – رحمه الله – فقال:

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك رقم (7465)

(متى أعطاك أشهدك برّه، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجوه لطفه عليك).

وما أجمل ما قاله د. مصطفى الرافعي - رحمه الله -: (تأتي النعمة فتدني الأقدار من يدك فرع الثمر الحلو، وأنت لا تدري جذره ولا تملكه، ثم تتحول فإذا يدك على فرع الثمر المر، وأنت كذلك لا ترى ولا تملك. ألا فاعلم أن الإيمان هو الثقة بأن الفرعين كليهما يصلانك بالله - تعالى -، فالحلو فرع عبادته بالحمد والشكر، وهو الأحلى عندك حين تذوقه بالحس، والمرُّ فرع عبادته بالصبر والرضا، وهو الأحلى حين تذوقه بالروح) [1].

من ثمرات الابتلاء:

نسيان حقيقة أنك مبتلى في هذه الحياة ومتقلب بين السراء والضراء، والمنع والعطاء؛ يجرك إلى الانزلاق في متاهات البطر والغرور عند وفود النعم، ويقيدك بسلاسل السخط والجزع عند حلول النقم!

(1) السحاب الأحمر ص35

لماذا نفشل في اختبار التكليف ؟

(كلـف الله – عز وجـل – أبينا أدم، ألَّا يأكل من شـجرة معينـة، تمثل المحظور الذي لا بد منه؛ لتربية الإرادة، ثم أغراه الشـيطان بـالأكل منها، فوقع في فـخ العصيان، ثم ندم وتاب واعتـذر، فأُخرج من الجنة ونزل إلى الأرض، وشـرع كثير من الأبنـاء يمثلون القصة نفسـها ويرتكبون الخطـأ ذاتـه، ولكنـه ليـس أكلًا مـن شـجرة، بـل اتباعًـا للشـهوات التي تقـود إلى العصيان والحرمـان!، العنوان متغير، والحقيقة واحدة)[1]

(1) مقتبس من كلمات الشيخ محمد الغزالي في كتابه (علل وأدوية)

وبدأت رحلة التكليف:

منذ اللحظة الأولى لخلق آدم - عليه السلام -، وسجود الملائكة له تكريمًا وتشريفًا، ورفض إبليس السجود استكبارًا واغترارًا، بدأت مرحلة الصراع بين آدم وذريته من جهة، وبين الشيطان من جهة أخرى؛ نتيجة حسد إبليس لآدم، ونقمته عليه ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:62).

ونجح الشيطان في إغواء آدم وزوجه، وزين لهما الأكل من الشجرة المحرمة، فكانت النتيجة خروج آدم من الجنة، ونزوله إلى الأرض.. ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (البقرة:36) [1].

وبدأت رحلة الامتحان والتكليف على الأرض، وتتابع بعث الأنبياء والرسل وإنزال الكتب؛ من أجل رسم معالم الهداية لهذا الإنسان المستخلف في الأرض، وتحذيره من سلوك طريق الغواية

---

(1) لم تكن إذًا زلة آدم - عليه السلام - سببًا لشقاء ذريته وتعاستهم، ولم تكن السبب في حرمانهم من الخلود في الجنان كما يزعم الجهال، فهم في الحقيقة لم يخلقوا ليقضوا حياتهم فيها، وإنما خلقوا؛ ليعمروا الأرض بعبادته، سبحانه، كما قرر ذلك سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:30). ولقد كانت تلك الزلة هي السبب الذي فتح لهم على أثره باب التوبة والاستغفار، وكان ذلك وسيلتهم للخلود الحقيقي في جنات النعيم.

والضلال ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ (البقرة 38 - 39).

وهكذا حمل الإنسان أمانة التكليف في الأرض، والتي تقتضي طاعة الله - تعالى - في أوامره ونواهيه والسير على منهاجه.. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: 72).

والتكليف يستدعي الكلفة والجهد، ولا يتحقق كل منهما إلا إن حُمِّل الإنسان أثقالًا من الغرائز والأهواء، وجُهِّز بأشواق إلى الحق والخير والإحسان، ومُكِّن بعد ذلك أن يختار ما يشاء. إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم، القليل القوة، الضعيف الحول، المحدود العمر الذي تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع.

لقد قضت حكمة الله - تعالى - أن تكون تجربة آدم - عليه السلام - فريدة ومميزة تلقى فيها تدريبًا على تلقي الغواية، وتذوق العاقبة، وتجرع الندامة، ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين، واكتشف من خلالها طاقاته وقدراته، وعلم نقاط ضعفه وقوته، وأدرك وسائل ومداخل عدوه في التضليل والخداع، وعلم أن حرية الإرادة والاختيار التي زوده الله - تعالى - بها هي مناط التكليف والجزاء، وأنه يملك التحليق بروحه في السماء بعيدًا عن جواذب الشهوات وقيود الرغبات، فيستعلي بإيمانه على

إغواء شيطانه، وفي المقابل إذا وهنت إرادته وفترت عزيمته، وضعف عن مقاومة لهيب شهواته، فإن شيطانه يقوده إلى مستنقع الغواية ودرك الشقاء.

أسباب الغواية:

هناك سؤال يلح على الأذهان، وهو كيف يفشل المرء في اختبار التكليف، ويصر على اتباع الشيطان رغم أنه يمتلك رصيدًا كافيًا من الخبرة والحكمة من خلال تجربة آدم – عليه السلام –، ورغم التحذيرات المتتالية من الاستجابة للشيطان والانخداع بوساوسه؟

والإجابة تتلخص في أن: الإنسان تتجاذبه قوتان تحاول كل منهما أن تتغلب عليه، وأن توجهه وجهتها: قوة الخير التى يؤازرها العقل، ويرشدها الوحي، ويقويها العمل الصالح، وقوة الشر التي تمدها الشهوات، ويزينها الشيطان، ويقود إليها الهوى، والذي يتحكم في اختيار الإنسان لسلوكه سواء باختيار الهدى أو الضلال، عاملين:

الأول: العقل (العلم والإدراك): ودوره تبصير الإنسان بكل من الحق والباطل، والخطأ والصواب، فهم بمثابة مصباح يضيء للمرء معالم الطريق، ويكشف له الغث من السمين.

الثاني: القلب (العاطفة)، فهو مجمع العواطف والمشاعر والانفعالات، وهو المسئول عن قيادة النفس وتوجيه زمامها لما تحب وتشتهي، والمتأمل في واقع الناس يرى أن أكثرهم يعرفون الحق ويميزونه عن الباطل، ولكن كم منهم من يخضع سلوكه للحق الذي عرفه؟!

فعندما تصبح القيادة للعواطف التي يتحكم فيها الأهواء والشهوات الجانحة؛ يخفت صوت العقل ويعجز عن صرف القلب عن الخوض في الملهيات والملذات.

وهذا ما حدث مع آدم - عليه السلام - في معصيته، عندما استغل الشيطان نقطة ضعفه، وأدرك أن النفس والهوى هما مقود الإنسان إلى الشر، فعمد إلى تحريكهما عبر إثارة غريزتين أساسيتين في الإنسان، وهما: حب الخلود والبقاء، وحب التملك ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ (**طه:120**).

(إنها إذًا «شهوة» الخلود هي التي استزل بها الشيطان آدم وزوجه، فأكلا من الشجرة.. أو شهوة «الملك».. القوة والسيطرة والسلطان. إذًا.. لقد صارت هذه الشجرة «شهوة».. يستوي أن تكون شهوة علم، أو شهوة قوة، أو شهوة سلطان، أو شهوة ملك، أو شهوة جنس، أو شهوة خلود.. إنها «شهوة» حين تركبه فلا يملك نفسه منها.. لا يملك الامتناع عنها حين يريد الامتناع. وعندئذ يتدخل عدوه الواقف له بالمرصاد، فيقوده من خطامه في طريق الشهوات. وعندئذ يبعد به عن الدور المعد له، دور الخلافة عن الله - تعالى -، فهو مشغول بشهوته، عاجز عن ضبط نفسه إزاءها، عاجز عن الارتفاع عنها، عاجز عن توجيه وجهه إلى أعلى.. إلى الله - عز وجل. ولكنه ليس ضعفًا أبديًّا، ولا هي زلة لا قيام منها، فهو يملك دائمًا أن يفيق من زلته بأن يرفع وجهه إلى خالقه.. ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (**البقرة:37**)، وتلك قيمة رئيسة من قيم

حياته، فهو عرضة للضعف أمام الشهوات، ولكنه كذلك مزود بالقدرة على الإفاقة من هذا الضعف؛ بالتوجه إلى الله، وفي صميم فطرته أن يفعل هذه وتلك: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ (الشمس 7 - 10) [1].

وهكذا بنو آدم في امتحان التكليف، يمرون بنفس تجربة الإغواء مع الشيطان.. نفس الخداع والتضليل.. نفس الوعود المعسولة والأماني البراقة.. نفس الثغرة ونقطة الضعف الدائمة: حب الشهوات، واستغلال الشيطان ضعف الإرادة، وبرود العزم، فتغزو القلب الأهواء وتهجم عليه الشهوات؛ لتفترس إيمانه، وتنهش تقواه، إلا أن تتداركه رحمة ربه، فتستيقظ مشاعر عبوديته؛ لتقوده إلى محراب الندم وحصن التوبة، فيجد فيه الراحة بعد التعب، والطمأنينة بعد القلق، والأنس بعد الوحشة، والاستقامة بعد الشرود والزلل.

حكمة خلق الشيطان ومنحه القدرة على الإغواء والتضليل:

وألمح في عقلك سؤالًا لا يكاد يفارق ذهنك وهو.. إذا كان الشيطان له هذه القدرة على التزيين والتضليل والخداع، وهو لا يملُّ من إغواء البشر وإغراءهم بما يسوقهم- إن استجابوا له - إلى مهاوي الضلال وعذاب الجحيم؛ فلماذا سلطه الله علينا، ومنحه القدرة على إضلالنا؟!

(1) نقلًا من (منهج الفن الإسلامي) ص 166 – 167 بتصرف، (ودراسات في النفس الإنسانية) ص31 – 32، وكلا الكتابين للأستاذ محمد قطب – رحمه الله.

أجاب عن هذا السؤال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -، فذكر حكمًا كثيرة، أقتطفُ منها هذه الخمس [1]:

1. **ما يترتب على مجاهدة الشيطان وأعوانه من إكمال مراتب العبودية:**

فمنها أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه، ومخالفته ومراغمته في الله - تعالى -، وإغاظته وإغاظة أوليائه، والاستعاذة به منه، واللجوء إليه أن يعيذهم من شرّه وكيده، فيترتب على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه.

2. **جعله الله - تعالى - عبرة لمن اعتبر:**

ومنها أن الله جعله عبرة لمن خالف أمره، وتكبر عن طاعته، وأصرّ على معصيته، كما جعل ذنب أبي البشر عبرة لمن ارتكب نهيه، أو عصى أمره، ثم تاب وندم ورجع إلى ربه، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصرّ وأقام على ذنبه، وهذا الأب عبرة إن تاب ورجع إلى ربه.

3. **الابتلاء به إلى تحقيق الشكر:**

ومن هذه الحكم أنه - سبحانه -، يحبّ أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه، ولا ريب أن أولياءَه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده، وامتحانهم به من أنواع شكره، ما لم يكن ليحصل لهم بدونه، فكم بين

(1) وذلك في كتابه (شفاء العليل في مسائل القدر والحكم والتعليل) ص 467 - 469

شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها، وبين شكره بعد أن ابتلي بعدوه ثم اجتباه ربه، وتاب عليه وقبله؟

4. **ما حصل بسبب وجود الشيطان من محبوبات للرحمن:**

فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من الشرور والمعاصي ما حصل، فكم حصل بسبب وجوده، ووجود جنوده من طاعة هي أحب إلى الله - تعالى - وأرضى له من جهاد في سبيله، ومخالفة هوى النفس وشهوتها له، ويحتمل المشاق والمكاره في محبته ومرضاته، وأحبّ شيء للحبيب أن يرى محبّه يتحمل لأجله من الأذى ما يصدق محبته.

5. **خلق الله خلقه بحيث يظهر فيهم أحكام أسمائه وصفاته وآثارها:**

فالله - سبحانه - لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده، وحكمته أن يخلق خلقًا يظهر فيهم أحكامها وآثارها، فلمحبته للعفو خلق من يحسن العفو عنه، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له، ويحلم عنه، ويصبر عليه، ولا يعاجله، بل يكون يحب أمانه وإمهاله. ولمحبته لعدله وحكمته؛ خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته، ولمحبته للجود والإحسان والبر؛ خلق من يعامله بالإساءَة والعصيان، وهو - سبحانه - يعامله بالمغفرة والإحسان. فلولا خلقه من يجري على أيديهم أنواع المعاصي والمخالفات ؛ لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها، وأضعاف أضعافها).

وخلاصة القول: إن في مراغمة الشيطان وقهر وساوسه ومجاهدة نزغاته؛ تحريرٌ للمرء من كافة أشكال العبودية لغير الله - تعالى - والتي

يحركها الشيطان عبر إثارة الشهوات الكامنة في النفس، فالمرء وهو يجاهد وساوس الشيطان يقوم بتطهير قلبه من كافة العلل والآفات التي تمثل بذرة صالحة؛ لنمو وساوسه، كما أنه يزكي القلب بما يمارسه من عبوديات الصبر والخشية والرجاء والتوبة والتوكل والتضرع و..

وبذلك يرتقي في سلم العبودية، ويصعد في مدارج التقوى.

بقي أن أشير إلى أن الشيطان رغم كثرة مداخله، وتنوع أسلحته وعدته؛ لا يملك - في الحقيقة - إلا الوسوسة عبر بث الأماني الكاذبة والوعود الخادعة، فهو لا يملك إجبارك على سلوك طريق الغواية إلا أن تنخدع بوساوسه، وتستجيب لإغراءته.

وليس أدلّ على ذلك من أنه سيتبرأ من أتباعه يوم القيامة، ويلقي بالمسئولية التامة واللوم الكامل عليهم، كما سجل الله - عز وجل - ذلك في كتابه، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم: 22).

لو لم يكن في كتاب الله آية تتحدث عن وعود الشيطان وإغرائه إلا هذه الآية؛ لكفى بها زاجرًا للقلوب الغافلة، ومحذّرًا للنفوس الراقدة.

واعجباه.. إن الشيطان ليس بين يديه قوة قاهرة ملك بها أمر هؤلاء الذين أضلّهم وأوقعهم فى شباكه، إنه أشبه بالصائد الذي ينصب شباكه للطير ويضع فيها الحبّ؛ فتسقط عليها، وتعلق بها، وتصبح صيدًا في يده.

أُفٍّ لهذه العقول المتحجرة، التي ترى الصورة الكاملة لما سيكون عليه حال الشيطان ومن والاه– وهي مازالت في حياتها الدنيا في مرحلة الاختبار – قبل معاينة الأهوال يوم القيامة، ثم تأبى إلا أن ترمي بنفسها إلى أحضان الشيطان بكامل إرادتها وطواعيتها!

مؤهلات النجاح فى اختبار التكليف:

إذا كان اتباع الهوى هو مفتاح كل الشرور وأساس كل بلية، وهو مطية الشيطان في إضلال العباد وإغوائهم، وهو الباعث على فشل العبد في اختبار التكليف؛ فكيف السبيل للنجاة؟ الإجابة في قول الله – عز وجل –: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ **(النازعات**40 - 41).

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ هي نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة، فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان وكل تجاوز وكل معصية، وهو أساس البلوى، وينبوع الشر، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قِبَل الهوى، فالجهل سهلٌ علاجه، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها، والخوف من الله – تعالى – هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة، وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام

دفعات الهوى، ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة. ولم يكلف الله - تعالى - الإنسان ألا يشتجر (يتنازع) في نفسه الهوى، فهو - سبحانه - يعلم أن هذا خارج عن طاقته، ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها، وأن يستعين في هذا بالخوف. الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب، وكتب له بهذا الجهاد الشاق؛ الجنة جزاءً ومأوى، حين ينتصر ويرتفع ويرقي)[1].

وما أجمل حكمة ابن عطاء الله - رحمه الله -: (تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال.. لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق).

أي لا يكون سببًا في إخراج الشهوة المتمكنة من القلب إلا خوف من اللَّه - تعالى - مزعجٌ يَرِدُ على القلب من شهود صفات الجلال (العزيز، الجبار، القدير، القوي، المتين)، ومنشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد للعصاة من العذاب الأليم، أو شوق إلى اللَّه - تعالى - مقلق يرد على القلب من شهود صفات الجمال.. (الرحمن، الودود، اللطيف، العفو، الغفور، المحسن)، ومنشؤه النظر في الآيات المحتوية على ما أعد للطائعين من النعيم المقيم.

(1) في ظلال القرآن ج6/ 3819

من ثمرات الابتلاء:

عند التهاب الشهوات، ومعاناة النفس لسكرات الهوى، وانطفاء شعلة الخوف في القلب، يستغل الشيطان هذه اللحظات، فيهجم علي ضحيته؛ فيوقعها في فخ المعصية، فإن كان في القلب حياة؛ بادرت النفس اللوامة بالندم والتوبة.. وتبقى كلمة السر في طريق النجاة.. المحافظة على حياة قلبك بالمواظبة على الطاعات والعبادات، ثم لا تضرك المعصية ما دامت تقودك إلى محراب الإنابة.

استرداد هوية العبودية

(الشـدائد والمحن تقود العبد إلى محراب العبودية، فيكتشـف حقيقة ضعفه وفقـره وعجـزه وتذلّله لله، فتسقط أقنعة العجب والغرور، وتزول حجب الغفلة والاسـتكبار، وعندها يتـذوق المرء حـلاوة العبادة، ولذة الطاعة، وروعة القرب، ونسمات الأنس).

لا تتنكر لهويتك:

يحتاج العبد المؤمن – وهو يؤدي اختبار التكليف في رحلته على الأرض – أن يتذكر دومًا أنه عبد مملوك لله – سبحانه وتعالى – تحت قبضته وسيطرته، يعلن له عن فقره المطلق أمام غناه المطلق، وعن عجزه المطلق أمام قوته التي لا حد لها، وعن سوء حاله أمام واسع رحمته وعفوه، وعن جهله المطبق أمام علمه المحيط بكل شيء، وعن حاجته الدائمة إليه في كل شيء. هذه هي هوية عبوديته وجواز مروره إلى رضا ربه وجنته الدنيوية قبل الأخروية. قال الله – عز وجل–: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (فاطر:15). (يخاطب – تعالى – جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها؛ لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور؛ لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد. فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم؛ لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر، أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها)[1].

ويكفي أن يتذكر الإنسان ما يصيبه من حيرة وذهول، عندما يفاجأ بما لم يكن في الحسبان، فتختل موازين حياته العادية، ويشعر بأنه قد نزلت بساحته أكبر داهية، وبذلك يظهر الفقر الطبيعي للإنسان، ويتجلى عجزه البالغ للعيان، ولا تعود حياته سيرتها الأولى إلا إذا حفته الألطاف الخفية، فمنَّ الله - تعالى - عليه، وأمده من جديد بما يحتاج إليه.

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا:

غير أن الإنسان ينسى هذه الحقيقة، ويغفل عنها عند تتابع النعم والتقلب في المتع وبسط الرزق وطول الرخاء، فيتمرغ في أوحال الشهوات، ويتيه في مستنقع الملذات والملهيات، فيصبح عبدًا لأهوائه ورغباته، لا يستطيع التحرر من سلطانها ولا الخروج من مدارها.

(1) تفسير السعدي ج6/ 309 - 310 بتصرف

عندها، تأتي الشدائد والمصائب؛ لتوقظه من غفلته وتنبهه من سكرته، فتهيج مشاعر الندم في قلبه لتوجه إلى محراب الافتقار؛ بحثًا عن هوية عبوديته، والتي فقدها تحت تأثير سكرة الشهوات وجواذب الغفلات، فيدرك حينها بأن حاجته إلى ربه ذاتية في كل لحظة وليست عرضية بحيث تظهر في حالة الحرمان، وتختفي في حالة الطمأنينة والعطاء.

(كم من رجل عاش حياته، لم يذق طعم الضراعة على باب الرحمن، ولم تنبسط يداه إليه بسؤال صاعد من الأعماق، ولم يستشعر شيئًا من نعيم الذل لقيوم السماوات والأرض، إذ كانت النعمة تأتيه رغدًا من كل مكان، فلم يكن ثمة ما يقوده إلى ذل المسألة وضراعة العبودية. فلما ابتلاه الله - تعالى - بالمصيبة التي لم تنفعه فيها محبة صديق ولا إخلاص طبيب، ولم تنقذه منها أموال الدنيا ولا زعامات الزعماء ولا بطش الأقوياء؛ تذكر مولاه الذي لا مولى سواه، وضل من حوله من يدعوه إلا إياه، فأسرع إلى باب الله - تعالى - يتمرغ في أعتابه، يناديه من أعماق قلب كسير: ها قد عدت إليك يا رب بعد طول شرود وابتعاد، لبست جلباب عبوديتي لك، وقبعت في ذل انكساري إليك، وصحوت إلى عظيم فضلك وبالغ منَّتك ولطفك) (1).

وقد أشار الله - تعالى - إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (**الأنعام** 42 - 43).

---

(1) الإنسان وعدالة الله في الأرض، ص 31

وهكذا تتحول الشدائد والبلايا إلى منح وعطايا عندما توقظ الفطرة من غفوتها، وتستخرج من القلوب قسوتها، وتذكر الروح بهوية عبوديتها، وتعلن النفس توبتها، وأوبتها بعد طول غفلتها وشرودها!

ويحك يا صاح..

أتنتظر لحظات الهزيمة والانكسار حتى تشعر بحاجتك للافتقار للملك الجبار؟!

وهل عودة الوصال وإزالة الجفاء لا تكون إلا في أوقات المحن والضراء؟!

أتظن أنك – فقط – في الشدائد تجني الفوائد؟!

أنت فقير في كل الأوقات والأحوال.. في صحتك، ومرضك، في قوتك وضعفك، في عسرك ويسرك، في طاعتك ومعصيتك.

فلم لا تعلن عن هوية عبوديتك، وتغترف من ينابيع سعادتك؟!

وما أجمل نصيحة ابن عطاء الله – رحمه الله –: (تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلّك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته).

واحفظ هذه الجملة جيدًا وانقشها في قلبك؛ لتستحضرها في أوقات الضراء:

(إن الانكسار والأنين الناتج عن ألم البلاء، هو السبيل الوحيد لاسترداد هوية العبودية بعدما طمستها نوازع الشهوات ورياح الغفلات!)

الافتقار إلى الله - تعالى - لب العبودية:

لا تنمو شجرة العبودية إلا على ساق الافتقار، ولا يتحقق الافتقار إلا عندما يدرك العبد عظمة خالقه وجبروته – سبحانه وتعالى – في مقابل ضعف المخلوق التام وعجزه المطلق. (فَحَقِيقَةُ الْفَقْرِ أَنْ لَا تَكُونَ لِنَفْسِكَ. وَلَا يَكُونَ لَهَا مِنْكَ شَيْءٌ، بِحَيْثُ تَكُونُ كُلُّكَ لِلَّهِ. وَإِذَا كُنْتَ لِنَفْسِكَ فَثَمَّ مِلْكٌ وَاسْتِغْنَاءٌ مُنَافٍ لِلْفَقْرِ. فَالْفَقْرُ الْحَقِيقِيُّ: دَوَامُ الِافْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَأَنْ يَشْهَدَ الْعَبْدُ – فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ – فَاقَةً تَامَّةً إِلَى اللَّهِ – تَعَالَى – مِنْ كُلِّ وَجْهٍ) [1].

(وإنما يصح له هذا بمعرفتين لا بد منهما: معرفة حقيقة الربوبية والإلَهية، ومعرفة حقيقة النفس والعبودية، فهنالك تتم له معرفة هذا الفقر، فإن أعطي هاتين المعرفتين حقهما من العبودية اتصف بهذا الفقر حالًا، فما أَغناه حينئذ من فقير، وما أَعزه من ذليل، وما أَقواه من ضعيف، وما آنسه من وحيد. فهو الغني بلا مال، القوي بلا سلطان، العزيز بلا عشيرة، المكفي بلا عتاد. قد قرَّت عينه بالله – تعالى – [فقَرَّت به كل عين، واستغنى بالله – تعالى – فافتقر إِليه الأَغنياءُ والملوك) [2]

(1) المهذب من مدارج السالكين ص300 بتصرف – الإمام ابن القيم – إعداد الشيخ صالح الشامي

(2) تقريب طريق الهجرتين ص89

أما معرفة حقيقة الربوبية والإلَهية(إدراك عظمة الخالق)، فتتحقق عبر التفكر:

1- التفكر في الكون (كتاب الله المنظور):

الكون كله كتاب مفتوح تقرأ فيه دلائل الإرادة والقدرة، وآيات العظمة والكمال، في كل آية تتجلى الحكمة العظيمة، والتقدير البديع، والتنظيم الحكيم، والتركيب العجيب.

وقد قلب القرآن في آياته المتلوة صحف هذا الكون أمام الإنسان، دخل به نفسه، وصعد به إلى السموات، نزَل به إلى الأرض، وطاف به الوديان والجبال، وغاصَ به البحار، ودعاه في كل ذلك مرارًا وتَكرارًا إلى النظر في آياته العقلية والحِسية.

قال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ (**آل عمران**190 - 191).

إن التفكر المصحوب بالتذكُّر هو الذي يَطبع في النفوس صورَ الجلال الذي يملأ النفس رَهْبة، وصورَ الجمال الذي يملأ النفس رَغبة، فتدرك النفس عظمة الله - تعالى - وتسجد في محراب الافتقار.

2- التفكر في القرآن (كتاب الله المسطور):

القرآن الكريم كتاب هداية يقود العبد عبر تدبره إلى معرفة الله – عز وجل – بصفات الجمال والجلال عبر الدعوة المستمرة للتفكير في آيات الله – تعالى – والتأمل في مخلوقاته والنظر في ملكوته.

قال الامام ابن القيم – رحمه الله –:

(القرآن كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر، كما يذوب الملح في الماء، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله، ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء. وجماع ذلك: أنه سبحانه يتعرف الى العبد بصفات إلهيته تارّة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الالهية المحبة الخاصة، والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد اليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه. ويوجب له شهود صفات الربوبية والتوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له) [1]

---

(1) فوائد الفوائد ص63 – 65 بتصرف – الإمام ابن القيم– إعداد الشيخ علي الحلبي

ويكفي أن تتدبر آية الكرسي- أعظم آية في كتاب الله تعالى - ؛ لتقف على معاني العظمة والكبرياء والمجد والبهاء، وتلمح فيها جمال الألوهية، وجلال الربوبية، وتمام القيومية، ومطلق الإرادة، وتشاهد من خلالها عظمة ملكه وسلطانه وامتداد ملكوته وسعة غناه وشمولية علمه، وعظمة خزائنه، وكثرة كنوزه، وغزارة أرزاقه [1].

كل هذه المعاني الإيمانية الصافية، وغيرها - التي تنشأ في محراب التفكر - إذا تدبرها القلب بخشوع وافتقار؛ فتحت له نافذة إلى تعظيم الله وإجلاله، ومن ثم الشعور بالحاجة الملحة لارتداء كسوة التذلل والعجز والوقوف في محراب العبودية لله خجلًا، يحدثه عن حبه، ويشكو العجز عن أداء حقوق حبه له، يريه كوامن حبه المهتاج بين جوانحه وصدق رغبته في إيثاره والقرب منه والوصول إلى رضاه على سائر رغائبه النفسية وحظوظه البشرية، فينزل علي قلبه نسمات الأنس والسعادة والسكينة وراحة البال.

فيا لها من لذة لو عرفها الغارقون في مستنقع العبودية الذليلة للأهواء والشهوات لقاتلونا عليها بالسيوف، بل بالمدافع والطائرات!

وأما معرفة حقيقة النفس (إدراك ضعفها وعجزها):

فيكفي تدبر قول الله - عز وجل - ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾

(النساء: 28)

---

(1) لي بفضل الله كتاب بعنوان (وربك فكبر) وهو سياحة إيمانية في تدبر آية الكرسي والتنقيب عن إشراقاتها وأنوارها وهداياتها؛ فارجع إليه إن شئت.

ضعيف في أصل خلقته، خلق من ماء مهين ونطفة حقيرة ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ (المرسلات:20)

ضعيف في احتياجاته لمقومات حياته ومواد بقائه (الهواء– الماء– الطعام– الشراب– النوم– حركة الأمعاء والهضم– انتظام ضربات القلب – التنفس..) ولو تخلى عنه مولاه طرفة عين؛ لضاع وهلك.

ضعيف أمام الشهوات والرغبات.. تغلبه المرأة الفاتنة، وتخدعه الشهرة الزائفة، وتفتنه الشهوة الجامحة، وتأسره الأموال والثروات الهائلة.

ضعيف أمام وساوس الشيطان.. يخدعه بنفس حيله القديمة، ومكائده المعهودة.

ضعيف أمام المرض.. لا يملك مقاومة أنّاته وزفراته، ولا يستطيع شفاءه وعلاجه إلا بتوفيق مولاه وفضله.

ضعيف حتى لو امتلك القصور الفارهة أو الكنوز الطائلة أو السلطان العريض أو الملك الواسع أو القوة الباطشة أو العلم الغزير!.

يكفي أنه لا يستطيع تحمل الألم إذا أصابه أصغر الفيروسات، أو لدغته أضعف الحشرات، أو مسته أهون الكربات!

ضعيف إلا أن يستمد قوته من صلته بخالقه فينكسر على بابه وينطرح على أعتابه، وليس من عوارض الدنيا الزائلة – من قوة وعافية وغنى وعلم وأمن – التي توشك أن تفارقه أو يفارقها.

فيا لبؤس المرء الذي تخدعه لحظات الرخاء والاستقرار، فيتصور أنه سيد هذا الكون وصاحب القرار!، ويرى أنه مبعث القوة إن سار وتحرك، أو مبعث الدراية والفهم إن علم وتعلم، أو مبعث الملك والغنى إن شبع وتنعم، أو مبعث الغلبة والقهر إن قدر وتحكم، ولكن تتحطم كل هذه الأوهام في أوقات الفاقة والاضطرار، فيعود المرء إلى أصله عاجزًا، ضعيفًا، فقيرًا، جاهلًا، ذليلًا، لا غنى له عن ربه ومولاه طرفة عين، وإلا ضاع وهلك!

أيوب - عليه السلام - .. ذكرى للعابدين:

قص الله - تعالى - علينا في كتابه قصة أحد أنبيائه الذي ضرب نموذجًا فريدًا في الإحساس بالحاجة والافتقار التام إلى مولاه، لا سيما في حال البلاء والشدة، فقد ابتلاه الله - تعالى - ابتلاءً عامًّا؛ فقد مسه الضر في نفسه وبدنه، وأهله وأولاده، وأمواله وممتلكاته.

قال الله - عز وجل -: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الأنبياء 83 - 84)

(وقد جمع أيوب – عليه السلام – في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في التملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته – سبحانه –، وشدة حاجته وهو فقره. ومتى وجد المبتلى هذا؛ كشف عنه بلواه)[1].

(1) فوائد الفوائد ص151

وانظر إلى هذا الأدب النبوي العظيم فى مناجاة الخالق - جلّ وعلا -، فأيوب - عليه السلام - مع هذا البلاء العظيم، الذي شمله فى نفسه وأهله وماله جميعًا، لم يستبدّ به الجزع، ولم تستولِ عليه الحيرة، ولم تحرقه أنفاس الضيق والألم.. بل وقف بين يدي الله متبتلًا متذللًا يجأر إليه بشكوى عجزه وضعفه، ويسترحمه لفقره وسوء حاله، فهو يوقن بأن الله - تعالى - وحده هو القادر على كشف الضر عنه، وحمايته من كل سوء ومكروه؛ فكانت الاستجابة الربانية له والرحمة الإلهية تغمره وتحوطه ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾

وقد أثنى الله - تعالى - على أيوب - عليه السلام - ومنحه وسام العبودية ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ (ص44).

وهكذا عندما يشهد العبد فاقته وافتقاره إلى مولاه، يلذ له القيام والوقوف بين يدي الله في الأسحار، وينتشي بعرض شكواه عليه، واسترحامه لضعفه ومسكنته، يطيل السجود في هدأة الليل ويناجيه منكسرًا باكيًا، يستنزل صفحه عن ذنوبه التي ساقها إليه ضعفه، ويستدفع الأخطار والمصائب التي يراها تطوف به أو تدنو منه، ويسترحمه بعجزه وفاقته وضعفه.

من ثمرات الابتلاء:

لم أعد أضيق ذرعًا بالمحن والابتلاءات عندما اكتشفت أنها تعيد قلبي الشارد إلى حظيرة العبودية، فتنقلني من سجن الشهوات إلى واحة الطاعات، ومن الغفلة والاغترار إلى التذلل والانكسار، ومن وحشة المعصية إلى الأنس بالله - تعالى.

أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ

(ما أسهل دعاوى الإيمان في لحظات الاستقرار والرخاء، وما أصعب ممارسة هذا الإيمان عندما يدخل المرء ساحة الحياة ويتعرض للتحديات والضغوط والإغراء!. وعندها، يتبين الذهب من التراب، والصدق من الادعاء)

الابتلاء قرين الإيمان:

يتوهم كثير من الناس أنه بمجرد إعلان إيمانه أنه غير مطالب بتقديم بينة أو دليل يؤكد دعواه ويثبت صدقه وإخلاصه، أو أن الطريق إلى الله - بمجرد إيمانه - أصبح مفروشًا بالورود والرياحين أو آمنًا وخاليًا من العقبات والمصاعب والمشقات!

كلا.. لابد من الامتحان بالشدائد والابتلاء بالمكاره؛ ليتبين هل هو إيمان صادق، انشرح به الصدر، واطمأن به القلب، أم هو مجرد صورة من الشارات والمراسم؟

قال الله - عز وجل -: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (**العنكبوت** 2 - 3)

(إن الإيمان ليس كلمة تقال، إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا. وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم. كما تفتن النار الذهب؛ لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة

العالقة به – وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظله وإيحاؤه [1]، وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب)[2]، وهل يصفّى الذهب من الغثاء الذي علق به، إلا إذا صُهر بالنار؟

إنه (ما من شخص يدعي الإيمان إلا مُحِّصت نفسه بألوان التكاليف، وبُليت بمراتب شتى من الجهاد، جهاد الشبهات، وجهاد الحياة والمبادئ. ولابد أن يجتاز الشخص هذا الامتحان، ليحكم بعدئذ بنجاحه أو سقوطه.. والتكاليف التي شرع الله لعباده هي الطليعة الأولى للفتن التي تقتحم

---

(1) قال الأزهري في تهذيب اللغة: (جماع معنى الفتنة في كلام العرب الابتلاء والامتحان وأصلها مأخوذ من قولك «فتنت الفضة والذهب" أذبتهما بالنار ليتميز الرديء من الجيد)، وذكر الجرجاني في التعريفات أن الفتنة: ما يتبين به حال الإنسان من الخير والشر، يقال: فتنت الذهب بالنار، إذا أحرقته بها لتعلم أنه خالص أو مشوب، ومنه: الفتان، وهو الحجر الذي يجرب به الذهب والفضة) (معجم التعريفات ص 138).. وقال الأصفهاني:(والْفِتْنَةُ من الأفعال التي تكون من الله – تعالى –، ومن العبد كالبليّة والمصيبة، والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الله – تعالى – يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله – تعالى – يكون بضدّ ذلك، ولهذا يذمّ الله الإنسان بأنواع الفتنة في كلّ مكان) (مفردات ألفاظ القرآن ص624)

(2) في ظلال القرآن ج5/ 2720. راجع ما كتبه الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – في ظلال الآية السابقة فهو كلام قيم ونفيس.

النفس، وتكشف دخائلها، ولن تزال هذه الفتن تسبر أغوار الإيمان(أي تحيط علمًا به ظاهرًا وباطنًا)، ومدى صلابته، ومدى استعداد صاحبه للنعيم أو للجحيم؛ حتى يرجع الإنسان من حيث بدأ، إلى الله) [1]

وهكذا كما يحتاج الرياضي لتدريب مستمر وجهد دائب؛ لنمو عضلاته وتقويتها، كذلك تحتاج عضلة الإيمان إلى تدريب متواصل وامتحانات متتالية؛ لتقاوم رياح الشهوات وأعاصير الأهواء، وتصبح قادرة على الثبات والصمود وسط أمواج الفتن والمحن.

الفتن وتقوية بنيان الإيمان:

إن الإيمان الذي يريده الله – عز وجل – من عباده هو الإيمان الحي الفاعل المؤثر الذي يبعث على الحركة والهمة، والنشاط والسعي، والجهد والمجاهدة، والاستعلاء والعزة، والثبات واليقين. ولكي يصل الإيمان إلى هذه الدرجة السامقة يحتاج إلى سلسلة متواصلة من الشدائد والمحن؛ لتصفي ما علق به من شوائب أو كدورات، وتنقيه من نوازع الجزع والقلق والاهتزاز، فهذه الابتلاءات كالامتحان الذي نُجريه للتلاميذ؛ لنعرف مقدرة كل منهم، والمهمة التي يصلح للقيام بها، ومعلوم أن الابتلاءات لا تُذَمُّ لذاتها، إنما لنتائجها المترتبة عليها، فما جُعِلَتْ الابتلاءات إلا لمعرفة النتائج، وتمييز الأصلح للمهمة التي نُدِب إليها.

---

(1) عقيدة المسلم ص154 – 155 – الشيخ محمد الغزالي

وتتنوع الفتن التي تضع الإيمان موضع الاختبار بين فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة.

يقول ابن عجيبة - رحمه الله - في تفسيره للفتنة في قوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ أي: (أظن الناس أن يدّعوا الإيمان، ولا يختبرون عليه ليظهر الصادق من الكاذب، بل يمتحنهم اللّه بمشاق التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، ورفض الشهوات، ووظائف الطاعات، وبالفقر، والقحط، وأنواع المصائب في الأموال والأنفس؛ ليتميز المخلص من المنافق، والثابت في الدين من المضطرب فيه، ولينالوا بالصبر على ذلك عوالي الدرجات. فإن مجرد الإيمان، وإن كان عن خلوص قلب، لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب، وما نال العبد من المكاره يسمو به إلى أعلى الدرجات وأعظم المقامات، مع ما في ذلك من تصفية النفس وتهذيبها؛ لتتهيأ لإشراق أنوار مقام الإحسان) [1].

فالإيمان مسئولية ضخمة لا ينجح في حمل أعبائها وتكاليفها إلا من يمتلك مهارة السباحة في الأمواج الهائجة التي تتلاعب بها تيارات الشهوات والمغريات، لا يأبه بما يلاقيه من صعوبات وتحديات.

إن كثرة الفتن والمحن تعلم المؤمن كيف يواجه الشهوات، وكيف يتعامل مع مداخل الشيطان، ومزالق الطريق، ومسارب الضلال. تعلمه

(1) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ج 4/ 286

كيف يواجه المشاق بصبر وعزيمة موصولَيْن بالأمل في رحمة الله، والرجاء في نصرته. وكيف يتحرر من أسر حب الدنيا الفانية والتعلق بزخارفها الزائلة، ويضحي في سبيل ربه بالغالي والنفيس.

إن الناس جميعًا على سواء في حال الأمن والعافية، فإذا كانت المحن والشدائد، فهم أنماط وأشكال، وهم معادن مختلفة بين غثٍّ وثمين (فمن كان عند ورود الشبهات، يثبت إيمانه ولا يتزلزل، ويدفعها بما معه من الحق. وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله – تعالى – به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته؛ دلَّ ذلك على صدق إيمانه وصحته. ومن كان عند ورود الشبهات، تؤثر في قلبه شكًّا وريبة، وعند اعتراض الشهوات، تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات؛ دلَّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه) [1]

وكلما تهيأت النفس للارتقاء في مدارج الكمال البشري، اشتد عليها البلاء وتتابعت الشدائد. ألم يخبرنا النبي – عليه الصلاة والسلام – بذلك عندما سئل أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ فقَالَ:(الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صلابةٌ اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ)[2]

---

(1) تفسير السعدي ج6 / 66 – 67

(2) صحيح سنن ابن ماجه:(3249)

متى ينهار بنيان الإيمان؟!:

عندما تكون مسألة الإيمان موقفًا سطحيًّا لا عمق له، وتكون العبادة حركة في الشكل لا في المضمون، يهتز الإنسان في مواطن الشدة والابتلاء، فينهار بنيانه ويفقد اطمئنانه، فينقلب علي وجهه وينتكس عن الهدى.

وقد ذكر الله – تعالى – في كتابه هذا الصنف من الناس في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ (الحج:11)

إنه نموذج الإنسان الذي يعيش الاسترخاء في إيمانه فلا يبحث إلا عن الرخاء واليسر والربح، فإذا ابتلاه الله بما يفتن به الله عباده من البلاء المتنوّع في أجسادهم وفي أموالهم، وفي شهواتهم وأهلهم وأولادهم، اهتز إيمانه واضطرب يقينه، ولم يستطع الثبات أمام المحن، فيسقط في فخ الجزع والضيق والشك، ويفترسه القلق والاضطراب، ويخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾، فيا له من خسران!

وقد ذكر الله نموذج آخر لهذا الصنف في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ ...﴾ (العنكبوت:10)

فهذا (النموذج من الناس، يعلن كلمة الإيمان في الرخاء يحسبها خفيفة الحمل، هينة المئونة، لا تكلف إلا نطقها باللسان، «فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ» بسبب الكلمة التي قالها وهو آمن معافى «جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ» فاستقبلها في جزع، واختلت في نفسه القيم، واهتزت في ضميره العقيدة وتصور أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذي يلقاه، حتى عذاب الله، وقال في نفسه: ها هو ذا

عذاب شديد أليم ليس وراءه شيء، فعلام أصبر على الإيمان، وعذاب الله لا يزيد على ما أنا فيه من عذاب؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر، وعذاب الله الذي لا يعرف أحد مداه) [1]

فما أروع الإيمان عندما يكون شاطئ الأمان الذي نلجأ إليه عند اشتداد هبوب رياح الفتن، فيعصمنا من الجزع واليأس، ويمدنا بالصبر والأمل، ويمنحنا الثبات واليقين!

استعلاء الإيمان:

إن الإيمان الذي يرتكز على قاعدة صلبة من معرفة راسخة بالله، يتحوّل إلى عنصر قوّةٍ يدفع صاحبه إلى الاستعلاء على كلّ عوامل الضعف والخوف والحزن، ويدعوه إلى الإحساس بالقوّة والفرح الروحي بالألم والتضحية في طريق الجهاد ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 139).

ولقد تأملت في كتاب ربي أبحث عن نموذج لاستعلاء الإيمان في مواجهة الفتن والمحن، فما وجدت أروع من موقف سحرة فرعون عندما أشرقت أنوار الإيمان في قلوبهم، فوقفوا في تحدٍّ وثبات ورباطة جأش، أمام بطش فرعون وجبروته وطغيانه.

قال الله – عز وجل –: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾
قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

(1) في ظلال القرآن ج5/ 2723

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ (طه 70 - 73)

في هذه اللحظة الحاسمة والفاصلة، وبعد ظهور دلائل الإيمان الواضحة وحججه القاطعة علم السحرة علمًا يقينيًا أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان والخضوع لله ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ولم يبالوا بتهديدات فرعون وطغيانه عندما توعدهم بالعذاب الأليم ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾

لم يهددهم فرعون بحبس أجسامهم، ولا بإخراجهم من أوطانهم، ولا بمصادرتهم في أموالهم، ولا بحرمانهم من وظائفهم، وإنما هددهم بما هو أشد من ذلك كله: التمثيل والتنكيل بهم، وجعلهم عبرة لغيرهم، فماذا كان جوابهم؟ ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾

الله أكبر.. ما أعظم الإيمان عندما يخالط المشاعر!، ويملك القلوب، ويأسر العقول، ويجعل من الإنسان الفقير الضعيف، قوة هائلة تتحدى الجبابرة، وتستخف بأعظم الأهوال وأشد الخطوب، فتقف صامدةً شامخةً في وجه الباطل، تتحدى الإغراءات والتهديدات، وتستهين بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب،

وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح!

ما أروع الإيمان الذي يسكب في القلب اليقين بأن الملك الحقيقي لله - سبحانه -، بيده وحده النفع والضر، والمنع والعطاء، والحياة والموت، وأن الطغاة- كل الطغاة - أقزام ضعفاء مهازيل لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا حياةً ولا موتًا.

وهكذا يصنع الإيمان!..

ميلاد جديد يمنح الفكر والعاطفة والمشاعر رؤيةً سديدةً للحياة، بعيدًا عن الاغترار بالزينة الخادعة والأبهة الفارغة؛ لتهتف في صدق وخشوع ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

يا له من مشهد عجيب، وتحول مذهل يستحق النظر والتأمل.. فبعد أن كانت هممهم مشدودة إلى المال ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ (الشعراء: 41)، وكانت آمالهم منوطة بفرعون ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (الشعراء:44)، وبعدما ذاقوا حلاوة الإيمان كان جوابهم على التهديد والوعيد في ثبات ويقين: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾.

رفضوا كل الامتيازات التي كانوا يملكونها في حكم فرعون من مال وسطوة وجاه؛ لأنهم اختاروا الإيمان على الكفر، والهدى على الضلال، فلم تعد الدنيا تمثل لهم أي شيء، أمام الآخرة التي تمثل لهم كل شيء.

وما قيمة خسارة الحياة الدنيا بشهواتها وملذاتها في مقابل الخلود الأبدي في الجنان ونيل رضا الرحمن؟!

وهكذا تغير الاتجاه.. تغير المنطق.. تغير السلوك.. تغيرت الألفاظ.. أصبح القوم غير القوم.. وما ذلك إلا من صنع الإيمان!

من ثمرات الابتلاء:

عندما تخبو جذوة الإيمان في قلبي، أجد نفسي جزوعًا عند مس الشر، يأكلني الفزع، ويمزقني الهلع، تعصف بي الظنون والأوهام، وتفترسني وساوس الشيطان، فلا أتصور أن هناك فرجًا ولا أتوقع مخرجاً، إلا أن تتداركني رحمة الله - عز وجل -، فأعود إلى حصن الإيمان ألتمس الحماية والرعاية والطمأنينة والأمان.

الآن، فهمت ما قاله أحد الكتَّاب: (الإيمان ينبوع ثريٌّ (لا ينضب)، يجري في العروق في ساعات الرخاء، ليروي العطش في ساعة العسرة).

حُفت الجنة بالمكاره

(حُفَّت الجنة بالمكاره وأنـت تكرهها، وحُفَّت النار بالشـهوات وأنـت تطلبها، فمـا أنـت إلا كالمريض الشديد الداء، إن صبّر نفسه على مضض (ألم وكره) الدواء اكتسـب بالصبر عافية، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت به علة الضنا (المرض وسوء الحال)[1]

(يحيى بن معاذ - رحمه الله -)

---

(1) صفة الصفوة ابن الجوزي ج4/ 94

ثمن الجنة:

إن النجاح في ميادين الحياة المختلفة يتطلب مكابدة المشاق ومعانقة التعب، والصبر على الحرمان، وتحمل الآلام والأوجاع، ومفارقة الأهل والأحباب. كل ذلك من أجل تحصيل لذة فانية أو مجد زائل أو ارتقاء في وظيفة أو نيل شهادة أو تحسين دخل معيشي، فإذا كانت هذه الإنجازات رغم قصر فترة الاستمتاع بها تحتاج إلى هذا الكبد والعناء؛ فما بالكم بالخلود في الجنان حيث النعيم المقيم واللذة الدائمة!

هل يتوهم أحدكم أن يكون الطريق إلى الجنة محفوفًا بالمتع واللذائذ، تظلله الأشجار ذوات الأزهار والثمار!

كلا. طريق الجنة مليء بالعقبات والمشقات والصعاب، محفوف بأشواك الابتلاء، فيه القيود والحدود، فيه مخالفة النفس، ومجانبة الهوى، والصبر على التكاليف والعبادات، ومراغمة وساوس الشيطان، ومدافعة مطامع النفس وشهواتها، ومحاربة رغبتها في الراحة والكسل.

قال الله – عز وجل –: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران: 142)

إنها (التكاليف المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان. فربما كان الجهاد في الميدان أخف تكاليفًا هذه الدعوة التي يطلب لها الصبر، ويختبر بها الإيمان. إنما هنالك المعاناة اليومية التي لا تنتهي: معاناة الاستقامة على أفق الإيمان، والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك، والصبر في أثناء ذلك على الضعف الإنساني:في النفس وفي الغير، ممن يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية.. والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل وينتفش، ويبدو كالمنتصر! والصبر على طول الطريق وبعد الشقة وكثرة العقبات. والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال، والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان إلا واحدًا منها، في الطريق المحفوف بالمكاره، طريق الجنة التي لا تنال بالأماني وبكلمات اللسان!) [1]

من أجل ذلك أخبرنا النبي – عليه الصلاة والسلام – بهذه الحقيقة الهامة؛ فقال:(حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ. وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ) [2]

قال الغزالي: (بَيِّنٌ بهذا الحديث أن طريق الجنة وعرٌ، وسبيل صعب كثير العقبات شديد المشقات، بعيد المسافات، عظيم الأفات، كثير العوائق والموانع، خفي المهالك والقواطع، غزير الأعداء والقطاع، عزيز الاتباع والأشياع، وهكذا يجب أن يكون) [3]

(1) في ظلال القرآن ج1/ 483

(2) رواه مسلم 2822

(3) فيض القدير للمناوي ج3/ 89

والمكاره يدخل فيها الاجتهاد في العبادات والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها، وفطم النفس عن مألوفاتها. عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنَّ رسول الله – ﷺ – قال: (لما خلق الله الجنة؛ قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب، فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب! وعزّتك لا يسمع بها أحدٌ إلَّا دخلها، ثم حفها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب، فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب، وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، فلما خلق النار؛ قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء، فقال: أي رب، وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفها بالشهوات، ثم قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب، فنظر إليها، فقال: أي رب، وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها) [1]

أخي،

إن للجنة ثمنًا يجب أن يُؤدى، وعطاءً يجب أن يُبذل، ومشقات تُقابل بالصبر، وشهوات تُقاوم بالمجاهدة، ونفس أمارة تواجه بالترويض والتزكية، وشيطان لحوح يحتاج إلي يقظة وانتباه ولجوء إلى حمى الملك – سبحانه –، فليست الجنَّة منحة مجانية يمنحها اللّه – تعالى – للكسالى والخاملين والعاطلين!!.. فهل دفعت الثمن؟

- ثمن الجنة.. هجر فراشك الوثير الدافئ، وقيامك لصلاة الفجر في خضوع وخشوع تبتغي رضا مولاك والقرب منه.

(1) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم كما في صحيح الجامع رقم 5210

- ثمن الجنة.. العزم على التوقف عن معصية معينة زينها لك الشيطان لسنين طوال بعدما أقنعك بأنه لا فكاك لك منها، رغبةً فيما عند الله، وطمعًا في جنته.
- ثمن الجنة.. كظم غيظك والعفو عمن ظلمك والصفح عمن أساء إليك، وقهر رغبات نفسك التي تهيجك على التشفي والثأر والانتقام.
- ثمن الجنة.. الصبر على فتنة انتفاخ الباطل وانتفاشه وكثرة المؤيدين له، واتباع الحق رغم وعورة طريقه وقلة سالكيه.

إنها الجنة! وما أدراك ما الجنة! الجائزة الكبرى، والمكافأة العظمى التي يمنحها الملك - عز وجل - عباده الصابرين؛ جزاءً لما قدموا من عطاء وتضحيات، وما لاقوه من مشقات وصعوبات، وما عانوه من مرارة الحرمان ابتغاء مرضاة الرحمن.

وما أروع ما قاله الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

(النعيم لا يدرك بالنعيم، ومن آثر الراحة فاتته الراحة، وأنه بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة. فلا فرحة لمن لا همّ له ولا لذة لمن لا صبر له ولا نعيم لمن لا شقاء له.. ولا راحة لمن لا تعب له.. صبر ساعة خير من عذاب الأبد.. وإذا تعب العبد قليلًا استراح طويلًا) [1]

(1) مفتاح دار السعادة ص366

والله يدعو إلى دار السلام:

قال الله - عز وجل -: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الأنعام:127)، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (يونس: 25)

ما أجمل دعوة الرحمن لعباده - الذين صبروا على متاعب السفر في رحلتهم إلى الآخرة وتحملوا صعوباته وتجاوزوا منعطفاته - إلى جنته بوصفها (دَارِ ٱلسَّلَٰمِ).

وسميت الجنة بدار السلام لعدة وجوه:

1 - السَّلَامَةُ مِنْ جَمِيعِ الشَّوَائِبِ وَالْمَصَائِبِ وَالْمَعَايِبِ، وَالنَّقَائِصِ وَالْأَكْدَارِ، والْمُنَغِّصَاتِ وَالْكُرُوبِ وَالنَّكَبَاتِ.

2 - السلام تَحِيَّةُ اللهِ وَمَلَائِكَتِهِ لِأَهْلِهَا، وَتَحِيَّةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ الدَّالَّةُ عَلَى تَحَابِّهِمْ وَتَوَادِّهِمْ.

3 - السَّلَامُ مِنْ أَسْمَائِهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَأُضِيفَتْ دَارُ النَّعِيمِ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهَا، وَهُوَ مَصْدَرٌ وُصِفَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ كَالْعَدْلِ، وَيَدُلُّ عَلَى كَمَالِ التَّنْزِيهِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم.

فكما صبر المؤمنون في دنياهم على جميع المشقات والمقلقات والمزعجات، كافأهم الله بالجنة التي تخلو من كل ما يعكر صفوهم ويكدر سرورهم وفرحهم. ففي الجنة نودع الهموم والأحزان ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ (فاطر:34).. ويزول

التعب والنصب ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (**فاطر** 35).. ويختفي الغل والحسد ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (**الحجر**47)، وتستقبلنا الملائكة بالترحاب والتكريم ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ (**الحجر**46) (بسلام في أجسادنا، فلا أمراض بعد اليوم.. لا حمى ولا زكام، ولا ربو ولا سكري ولا ضغط ولا جلطات ولا سكتات، ولا غيبوبة، ولا ضعف في البصر أو عمى.. بسلام في أجسادنا، فلا إعاقات ولا شلل ولا إصابات ولا كسور ولا جروح ولا حروق ولا علل ولا عيوب.. بسلام في أرواحنا، فلن تفارق أجسادنا الساحرة، ستظل ترفرف في سعادة بين جوانحنا، فلا قلق ولا كآبة ولا إحباط ولا ملل، ولا يأس ولا انكسار ولا حزن، ولا قتل فقد ذبح الموت.. بسلام في قصورنا وبيوتنا وأكواخنا ومزارعنا وشاليهاتنا ومنتجعاتنا، فلا لصوص ولا عصابات ولا مقتحمين ولا متجسسين على خصوصياتنا.. بسلام في مستقبلنا، فالقادم أجمل من الحاضر، ولن نخشى بعد اليوم جفافًا أو قحطًا أو زلازل أو براكين أو فياضاناتٍ أو حروبًا تأكل الأخضر واليابس.. بسلام في طعامنا وشرابنا، فلن نعاني من الجوع والعطش أو الغصص أو المرارة والتسمم، وليس في قوائم الطعام والشراب شيئًا محرمًا أو ممنوعًا،، أو مسموحًا به لأحد دون أحد، أو لطبقة دون طبقة.. بسلام في أجوائنا، فلن نعرف الحر المزعج أو البرد القارس، أو الغبار المؤذي، أو الرطوبة الخانقة أو الريح أو العواصف والأعاصير المدمرة)[1]

(1) الجنة حين أتمنى ص 11 – 13 بتصرف – د. محمد الصوياني

فتخيل نفسك وأنت تتقلب في هذا النعيم (وقد زحزحت عنك كل آفة، وأزيل عنك كل نقص، وطهرت من كل دنس، وأمنت فيها الفراق؛ لأن الله - تعالى - قد قصد قلبك فقال للهموم: زولي عنه فلا تخطري له أبدًا، وقال للسرور: تمكن فيه فلا تزول منه أبدًا، وقال للأسقام: زولي عن جسمه فلا تعرضي له أبدًا، وقال للصحة: أقيمي في بدنه فلا تبرحي أبدًا، وذبح الموت وأنت تنظر إليه، فأمنت الموت فلا تخافه أبدًا، ولا زوال ترتقبه، ولا سقم يعتريك أبدًا، ولا موت يعرض لك أبدًا، قد منحت جوار ربك، لا تخاف سخطه أبدًا بعد رضاه عنك) [1]

أخي،

إن غمسة واحدة في الجنة تُنسيك كل البؤس والهم والشقاء والحزن، الذي عشته في الحياة الدنيا.. فما بالك بالخلود الأبدي؟!

فعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله - عليه الصلاة والسلام -: (يُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ. فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟. هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ، يَا رَبِّ! مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ) [2]

قل لي بربك.. أين الهموم الماضية، والآلام المضنية، والمحن العاتية؟!، ذهبت إلى غير رجعة، وأصبحت ذكريات تذكر المهمومين بقيمة الصبر وفضيلة المجاهدة.

---

(1) التوهم ص 128 - 129 - الحارث المحاسبي

(2) رواه مسلم 2807

فإذا كان المصيرُ إلى هذه الدارِ؛ فلتخفَّف المصائبَ على المصابين، ولتَقَرَّ عيونْ المنكوبين، ولتفرح قلوبُ المعدمين.

من ثمرات الابتلاء:

كلما أصاب قلبي نوبات الوهن أو غلبني اليأس والفتور؛ ذكَّرت نفسي بالخلود في الجنان، وسكنى القصور، وملاطفة الحور، وما أعده الله– تعالى - للصالحين من النعيم والسرور.. (ومتى تخايل (العبد) دوام اللذة في الجنة من غير منغص ولا قاطع، هان عليه كل بلاء وشدة)[1].

(1) ما بين القوسين من كلام الإمام ابن الجوزي – رحمه الله – في كتاب (أعذب الخواطر مختصر صيد الخاطر ص150)

وعندها يسطع شعاع الإخلاص

(الإخلاص يسطع شعاعه في النفس، أشد ما يكون تألقًا في الشدائد الحرجة، إن الإنسان عندها ينسلخ من أهوائه، ويتبرأ من أخطائه، ويقف في ساحة الله أوابًا، يرجو رحمته ويخاف عذابه)[1]

(الشيخ محمد الغزالي)

(1) خلق المسلم ص 66

يقظة الفطرة في الشدائد:

إن الإيمان بالله - تعالى - شعور فطري ينبع من داخل النفس يجده الإنسان في نفسه بغير تعلم ولا تلقين ولا اكتساب (فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ...) (فاطر30). غير أن الإنسان قد يخدعه إلف النعم وطول الرخاء، فيقوده ذلك إلى الغفلة والركون إلى النفس ونسيان المنعم - عز وجل -، وربما إلي البطر والغرور والتكبر.

هنا يسلط الله - تعالى - عليه سهام البلاء وسياط الشدة؛ لعله يتذكر هذه الحقيقة المغروسة في فطرته، فيعود إلى مولاه ضارعًا خاشعًا يسجد في محراب الإخلاص، وعندها تنقشع سحب الغفلة وتزول أوهام الاغترار، فلا يرى القلب سوى معبوده (سبحانه) الحقيقي الذي بيده النفع والضر، والعطاء والمنع، بعدما تيقن أن كل ما سواه وهم خادع وسراب زائل.

قال الله - عز وجل -: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:12) [1]

---

(1) وقد تكرر هذا المعنى في آيات كثيرة، انظر على سبيل المثال: الأنعام (63)، الإسراء (67)، فصلت(49 - 50)، الروم (33 - 34)

إن طبيعة الإنسان أن يعرف ربه ساعة الشدة، وأن يلجأ إليه عندما تستحكم أزماته، وتحصره الشدائد، وتأخذ بخناقه الكربات، فيلجأ إلى مولاه في خشوعٍ وخضوعٍ، في كل حالاته، في إلحاحٍ مستمر لا يترك أيَّة فرصةٍ، فهو يدعو في كلٍّ حال يكون عليه: لجنبه، أو قاعدًا، أو قائمًا. فهو من لهفته وانحلال عزيمته يدعو بكل لسان، ويستصرخ بكل جارحة طالبًا النجدة والغوث. وهذا أمر حسن أن يعرف الإنسان ربه في الشدة ويفزع إليه، ويطرق باب فضله وإحسانه، ويدعوه لكشف الضر عنه، فذلك من إيمان المؤمن بربه وثقته فيه وطمعه في رحمته. وأحسن من ذلك، أن يعرف الإنسان ربه في الرخاء، ويسبح بحمده ويشكر له ويذكر نعمه وإحسانه إليه، ولكن أن ينسى المرء فضل مولاه ويجحد كرمه بعد زوال الكرب وانكشاف الضيق ورفع البلوى، فيعود إلى سيرته الأولى من الغفلة وإتباع الهوى والانغماس في الشهوات، وكأن ضرًّا لم يكن قد مسّه، وكأن حالًا من الذّلة والاستكانة لم تكن قد لبسته، وكأن رحمة السماء لم تمدّ يدها إليه وتستنقذه من الهلاك المطبق عليه!

وقال - سبحانه - في موضع آخر: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ (**الزمر: 8**)

وما أجمل تعليق الإمام القشيري - رحمه الله - وهو يصور صورة هذا الإنسان الجاحد:

(إذا مسّه ضرّ خشع وخضع، وإلى قربه فزع، وتملّق بين يديه وتضرع. فإذا أزال عنه ضرّه، وكفاه أمره، وأصلح شغله نسي ما كان

يدعو إليه من قبل، وجعل لله أندادًا، فيعود إلى رأس كفرانه، وينهمك في كبائر عصيانه، ويشرك بمعبوده. هذه صفته... فسحقًا له وبعدًا، ولسوف يلقى عذابًا وخزيًا) [1]

عجبًا أيها العبد الجاحد!..

فى الشدائد يجتمع رأيك، وتتفتح ملكاتك فترى الواقع على حقيقته. فإذا زالت الشدة، وانفسح الأمل، أعطيت زمامك لهواك، وأسلمت وجودك لشيطانك..

ألا من وقفةٍ صادقةٍ مع نفسك تذكر فيها ضعفك وعجزك وفقرك وقلة حيلتك؟!

لماذا لا نظل نلتجئ إلى الله - عز وجل - في الرخاء كما نلتجئ إليه في الشدة؟!

لماذا يفر أحدنا إلى الله عندما تطوف به محنة، فقر، مرض، فإذا استجاب الله - عز وجل - دعاءه، وفرَّجَ عنه كربه؛ تنظر إليه وإذا هو يعود إلى سابق غفلته!؟

هل أخذت أيها الإنسان ضمانًا بانتهاء المتاعب إلى الأبد؟، هل اطمأننت إلى أنك لن تقع فى الفخ مرة أخرى؟

أتظن أن يد الله الرحيمة التي خلصتك من البلاء، وأنقذتك من المرض لا تستطيع أن تعود فتبتليك بشرٍّ من ذلك البلاء الذي أصابك؟ ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن

(1) لطائف الإشارات ج5/ 271

﴿يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ٦٩﴾ **(الإسراء 68 - 69)**

الإخلاص مفتاح النجاة:

وكل واحد منا في تجارب حياته يتذكر دور الشدائد والآلام في إزالة حجب الغفلة، وسطوع شعاع الإخلاص؛ ليدمر جراثيم الرياء، وينسف كل شبهة تعلق المخلوق الضعيف بغير خالقه القوي القادر.

هل تذكر عندما غلقت في وجهك الأبواب، وضاقت بك السبل، فشعرت برغبة شديدة للجوء إلى مولاك - بعد طول غفلة - بعدما تيقنت أنه لا عاصم لك سواه، ولا مغيث لك إلا إياه؟!

هل استشعرت ذلك وأنت تؤدي امتحانًا من الامتحانات، أو أصابك مرضًا يئست من شفائه، أو مرت بك كارثة أعجزتك، أو مصيبة أقعدتك، فأدركت حينها أنه لا خلاص لك من المحنة، ولا نجاة لك من الكرب، إلا بالالتجاء إلى الله وحده القاهر فوق عباده؟!

ألا ما أشقى المرء وأتعسه إذا كانت لحظات الشدة وأوقات المحنة لا ترده إلى ربه خاشعًا منكسًرا!، وما أشد مصيبة قلبه إذ تنزل عليه سياط البلاء، فيظل سادرًا (تائهًا) في غيِّه، هائمًا وراء شهواته، متقلبًا في فراش غفلاته، يستوي عنده الشدة والرخاء، لا يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبه القلوب الحية للاستجابة لنداء الفطرة والعودة إلى حصن الإخلاص!

والإخلاص يمنح صاحبه سكينة نفسية، وطمأنينة قلبية، تجعله منشرح الصدر، مستريح الفؤاد، فقد اجتمع قلبه على غاية واحدة، هي رضا الله - عز وجل -، وانحصرت همومه في هم واحد، هو سلوك الطريق الذي يوصل إلى مرضاته، ولا ريب أن وضوح الغاية، واستقامة الطريق إليها يريح الإنسان من البلبلة والاضطراب بين الاتجاهات، وتنازع الرغبات، وتعدد السبل.

فإذا فقدت بوصلة (الإخلاص)، تشتت جهدك، وتبددت طاقتك، وتمزقت قواك، فلا تعرف للراحة سبيلًا، ولا للسكينة طريقًا، فتصبح موزّع المشاعر، ممزّق الكيان، لا تدري ماذا تأخذ وماذا تدع؟، ولا تستطيع أن تقرر أتتقدم أم تتأخر؟، إنك عندئذ كالريشة فى مهبّ ريح هوجاء!

من ثمرات الابتلاء:

ما أجمل الألم إذا كان يقود صاحبه إلى حصن الإخلاص!، وما أروع الشدائد إذا كانت السبيل لعودة الحياة إلى القلب ونجاته من مستنقع الغفلة والاغترار!

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ

(بين صبر يقوي الإرادة ويحصنها من الوهن والفتور، وصلاة تسمو بالروح وتعرج بها في مدارج الأنس لتحلق في عوالم النور؛ يمتلك القلب الطاقة الإيجابية التي تستعلي على المشاعر السلبية التي تتكاثر عند اشتداد الأهوال وتتابع الكروب)

زاد على طريق الابتلاء:

إن الإنسان في معترك الحياة تتناوشه سهام الشدائد، وتتابع عليه التكاليف والمشقات، وتحيط به المتاعب والتحديات، وما لم يملك المرء الزاد الذي يعينه على تحمل المكاره والصعاب، ومدافعة المشاعر السلبية التي تغري المرء بالجزع والهلع، وتبث فيه روح العجز والاستسلام، خارت قواه ووهن عزمه وذاب احتماله، وثقلت عليه الأعباء؛ لذا أرشد الله عباده إلى زادين عظيمين بهما يستعذبون مشاق التكاليف، وبهما تهون لديهم مصائب الدنيا، وتذل أمامهم الصعاب، وبهما يستعلي المرء على هجمات القلق ولذعة الألم.

قال الله – عز وجل –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ **(البقرة:153)** [1]

---

(1) ويدرك المتدبر أن ذكر الصبر مقدم على ذكر الصلاة في هذه الآية، ذلكم أن الإنسان في هذه الحياة ما هو إلا مسافر يجد في سيره إلى الآخرة وهو في سفره يلقى من وعثاء الطريق ما يشق عليه وما يحتاج معه إلى صبر، والصبر في الإنسان له حد ينتهي إليه قد يقصر عن احتمال المشقة كلها والمصائب جميعها، فلابد له من الاستعانة بأمر آخر يتمم ما قصر عنه حد الصبر في الإنسان، فكانت الصلاة هي المتممة لذلك.

ولهذا كان رسول الله – عليه الصلاة والسلام – إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة، وكان يقول لبلال – رضي الله عنه – (أقم الصلاة أرحنا بها)، فمع عظم صبره – عليه الصلاة والسلام – وقوته وتجلده إلا أنه كان لا يجد راحته إلى في الصلاة، بل كان يقول (وجعلت قرة عيني في الصلاة) (الصلاة في القرآن مفهومها وفقهها ص41 – 42 د. فهد الرومي)

والاستعانة بالصبر والصلاة ليست أمرًا يسيرًا هينًا، ولكنها أمر عظيم خطير، لا تتلقاها إلا النفوس ذات العزيمة الحازمة والإرادة القوية، التي لا تضطرب عند وقوع الشدائد والأهوال، ولا تتزلزل وتنهار عند مس البلاء.. ولذا قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ (البقرة:45)

والصبر ضبط النفس وسيطرة الإرادة على الهوى، وسيطرة العقل على الشهوة، فإنه إذا سيطرت الإرادة والعقل والفكر المستقيم؛ انقمعت الشهوات، وإذا انقمعت؛ استقامت النفس (والصبر مع أنه مطلوب في كل حال، فإن الحاجة إليه أشد والطلب له أقوى وألزم حين يواجه المرء ما يكره من عواقب الأمور، فهنا يكون الإنسان أمام امتحان قاس لإيمانه بربه وتوكله عليه وتفويض أمره كله إليه. فإن لم يجد من الصبر ما يمسك عليه إيمانه ويقيم وجهه على الرضا والتسليم للّه؛ استبدّ به الجزع وقتله الهمّ، ووقعت بينه وبين ربه غيوم من التهم والظنون وهذه أول مزالق الشرك والكفر باللّه)[1]

(وحين يطول الأمد، ويشق الجهد، قد يضعف الصبر، أو ينفد، إذا لم يكن هناك زاد ومدد. ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر؛ فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد. المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع. ثم يضيف إلى الصبر، الرضى والبشاشة، والطمأنينة، والثقة، واليقين) [2]

(1) التفسير القرآني للقرآن ج11 / 573 – د. عبد الكريم الخطيب
(2) في ظلال القرآن ج1 / 141 – 142

فالصَّلاةِ هي معراج الروح إلى اللّه، فهي التي تفتح القلب على ربّه، وتشدّه إليه وتربطه به، حتى يحسّ أنَّ اللّه معه في كلّ مواقفه، فلا يخاف، ولا يحزن، ولا يضعف، ولا يتزلزل. وهكذا يعطي الصبر للصلاة قوّة الإرادة، وتعطيه الصلاة قوّة الروح، فيتكاملان في حماية المرء من السقوط والانهيار في مستنقع القلق والإحباط واليأس. وقد ختم اللّه الآية بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ)؛ ليؤكد لهم أنَّ اللّه لا يترك الصابرين وحدهم في مواجهة التحدّيات والأهوال والعقبات، بل يقف معهم يؤيدهم، ويثبتهم، ويقويهم، ويؤنسهم، ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم، ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة، وقوتهم الضعيفة، إنما يمدهم حين ينفد زادهم، ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق. وكفى بمعية الله – تعالى – عونًا للعبد الصابر، وبشارة له بالفرج والأجر العظيم.

وقد صرح القرآن الكريم بما للصبر والصلاة من أثر كبير في تهذيب النفوس وتطهيرها من بواعث اليأس والهلع عند حلول المصيبة، ومن بواعث الطغيان والبطر عند ورود النعم، فقال تعالى في الصبر: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ **(هود 9 - 11)** وقال في الصلاة: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ **(سورة المعارج)**

وبشر الصابرين:

إن الذي يلقى أحداث الحياة ومصائبها بالصبر، ويواجهها بالتسليم والرضا، عن يقين وإيمان بأن ما وقع إنما هو بقضاء اللّه وقدره؛ فإن ذلك يهوّن عليه من وقع المصائب وإن عظمت، ويمدّه بمعين عظيم من الصبر والاحتمال، ويفتح له بابًا واسعًا من الأمل والرجاء فيما هو خير عند اللّه وأبقى.

قال الله – عز وجل –: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ (البقرة:155) والصلاة من الله – تعالى – على العبد: الثناء والتشريف والتكريم والرحمة والعطف والعفو وإغداق النعم ظاهرة وباطنة. وَأما الرحمة فهي ما يكون له في نَفْسِ الْمُصيبة من حُسن العزاء، وبَرَدِ الرضا والتسليم للقضاء.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أَيْ: إِلَى مَا يَنْبَغِي عَمَلُهُ فِي أَوْقَاتِ الْمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ إِذْ لَا يَسْتَحْوِذُ الْجَزَعُ عَلَى نُفُوسِهِمْ، وَلَا يَذْهَبُ الْبَلَاءُ بِالْأَمَلِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَيَكُونُونَ هُمُ الْفَائِزُونَ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالرَّاحَةِ فِيهَا، الْمُسْتَعِدُّونَ لِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ بِعُلُوِّ النَّفْسِ وَتَزْكِيَتِهَا بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ. والعارفون يرون البلايا والمحن والفاقات وسائل العطايا والمنن ورفع الدرجات، ويعتقدون أنها أقل برهان يعرب به المحب عن حسن استعداده للقرب. وهذا بخلاف الذي لم يهتد إلى

الإيمان والتسليم، فإنه قد خلّيَ بينه وبين مصيبته، يتجرع غصصها، ويمضغ جمرها، ويبيت على أشواكها، دون أن يجد للصبر طريقًا، أو يرى للعزاء وجهًا.

والصبر كما عرفه الإمام ابن القيم - رحمه الله -: (خلق كسبي يتخلق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والجوراح عما لا ينبغي فعله، وهو ثبات النفس على الأحكام القدرية والشرعية) [1]

معينات على طريق الصبر:

والصبر على المصيبة - كما ذكر الإمام ابن القيم - ينشأُ من أسباب عديدة: [2]

1 - شهود جزائها وثوابها.. وأن يعلم أنَّ فوت ثواب الصبر والتسليم، وهو الصلاةُ والرحمة والهداية التى ضمِنَها الله - تعالى - على الصبر والاسترجاع؛ أعظمُ مِن المصيبة فى الحقيقة.

2 - شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: (لا يزال البلاء

---

(1) الروح ص677

(2) راجع (تقريب طريق الهجرتين ص 389 - 391)، وكتاب (زاد المعاد ج4 / 189 - 196) ففيهما كلام نفيس وحكم قيمة.

بالمؤمن والمؤمنة فى جسده ونفسه وماله وولده، حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة) [1]

3 – شهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مقدرة فى أُم الكتاب قبل أن يخلق فلا بد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاءً.

4 – أن يعلم أن الله – تعالى – قد ارتضاها له واختاره وقسمها، وأن العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه، فلينزل إلى مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه نزل إلى مقام الظلم، وتعدى الحق.

5 – أن يعلم أن هذه المصيبة هى دواءٌ نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه، ولا يتقيأْه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلًا. وأن في عُقبى هذا الدواءِ من الشفاءِ والعافية والصحة وزوال الأَلم، ما لم يحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته؛ فلينظر إلى عاقبته وحسن تأْثيره. قال الله – تعالى –: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 19)

6 – أن يُطفئَ نارَ مصيبته ببرد التأسِّي بأهل المصائب، ولينظر يَمْنةً، فهل يرى إلا مِحنةً؟ ثم ليعطف يَسْرةً، فهل يرى إلا حسرةً؟، وأنه لو فتَّش العالَم لم ير فيهم إلا مبتلًى، إما

(1) رواه أحمد (2/ 559) والترمذي (2399) وقال: حسن صحيح

بفوات محبوب، أو حصول مكروه، وأنَّ شرورَ الدنيا أحلامُ نوم أو كظلٍّ زائلٍ، إن أضحكتْ قليلًا، أبكتْ كثيرًا، وإن سَرَّتْ يومًا، ساءتْ دهرًا، وإن مَتَّعتْ قليلًا، منعت طويلًا، وما ملأت دارًا خيرةً إلا ملأتها عَبْرة، ولا سرَّته بيومِ سرور إلا خبأتْ له يومَ شرور.

7 – أن يعلم أنَّ الجَزَعَ يُشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويُغضب ربه، ويَسرُّ شيطانه، ويُحبط أجره، ويُضعف نفسه، وإذا صبرَ واحتسب أنضى(أتعب وأضعف) شيطانه، وردَّه خاسئًا، وأرضى ربه، وسرَّ صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه، وعزَّاهم هو قبل أن يُعَزُّوه، فهذا هو الثباتُ والكمال الأعظم، لا لطمُ الخدودِ، وشقُّ الجيوب، والدعاءُ بالوَيْل والثُّبور، والسخَطُ على المقدور.

8 – أن يعلمَ أنَّ الذي ابتلاه بها أحكمُ الحاكمين، وأرحمُ الراحمين، وأنه سبحانه لم يُرسل إليه البلاءَ ليُهلكه به، ولا ليُعذبه به، ولا ليَجْتاحَه، وإنما افتقده به؛ ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرُّعه وابتهالَه، وليراه طريحًا ببابه، لائذًا بجنابه، مكسورَ القلب بين يديه، رافعًا قصصَ الشكوى إليه.

إني رأيت وفي الأيام تجربة ... للصبر عاقبة محمودة الأثر

وقل من جد في أمر يحاوله ... واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

الصلاة.. مداد الروح:

إن المرء يحتاج حاجةً مُلِحَّةً إلى ما ينفِّس عن مشاعره، ويخفِّف من لأوائه ومصائبه، ويبعث في نفسه الطمأنينة القلبية، والراحة النفسية، بعيدًا عن العُقَد والاكتئاب، والقلق والاضطراب. وفي الاتصال بالله العلي الكبير قوة للنفس، ومدد للعزيمة، وطمأنينة للروح، ولهذا جعل الله الصلاة سلاحًا للمؤمن يستعين بها في معركة الحياة، ويواجه بها كوارثها وآلامها.. (وإذا واظب المصلي على هذه المناجاة، خمس مرات فى اليوم والليلة، تيقظت قواه الروحية، وأحس بأن الله - تعالى - يمده بالقوة، والعون، وأنه - سبحانه - معه لا يتخلى عنه، فتقوى عزيمته، وتشتد إرادته، ويمضي إلى غايته دون تردد أو ضعف مهما اعترضته الصعاب، أو واجهته العقبات. ولو قدر أنه لم يبلغ ما يريد؛ فإنه لا يحزن، ولا ييأس، بل يعيد المحاولة من جديد، واثقًا بالله، متوكلًا عليه. هذا من جانب.. ومن جانب آخر، فإن الصلاة انتزاع للنفس من ماديات الحياة وآلامها، وتوجيه لها إلى الله بالذكر، والدعاء، والضراعة، والخضوع لكبريائه وعظمته)[1]

ولعلك تسأل: ولكني أصلي ولا أستشعر في أوقات الشدائد والملمات بأن الصلاة هي الملجأ الآمن والحصن العاصم من القلق والاضطراب!

أقول لك بأن الصلاة التي تمد العبد بالطمأنينة والسكينة، هي التي يستحضر فيها القلب عظمة اللّه؛ حيث يكون الإنسان في صلاته في حال

(1) إسلامنا ص 116 – السيد سابق

من الخشوع والخضوع والتذلل بين يدي اللّه، لما يملأ قلبه من جلال اللّه وعظمته، وهذا هو الذي يجعل للصلاة ثمرًا طيبًا مباركًا، يذوق الإنسان منه حلاوة الإيمان، ويستروح منه أنسام التقوى، أما الصلاة التي لا يحضرها ذكر اللّه، ولا يغشاها الخشوع والرهب، ولا تظللها سكينة النفس وطمأنينة القلب؛ هي صلاة قليلة الثمر، ضئيلة الأثر.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله –:

(وَلَيْسَتْ (الصلاة) هِيَ الصُّورَةُ الْمَعْهُودَةُ مِنَ الْقِيَامِ وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالتِّلَاوَةِ بِاللِّسَانِ خَاصَّةً، الَّتِي يَسْهُلُ عَلَى كُلِّ صَبِيٍّ مُمَيِّزٍ أَنْ يَتَعَوَّدَهَا، وَالَّتِي نُشَاهِدُ مِنَ الْمُعْتَادِينَ لَهَا الْإِصْرَارَ عَلَى الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ، وَاجْتِرَاحِ الْآثَامِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَأَيُّ قِيمَةٍ لِتِلْكَ الْحَرَكَاتِ الْخَفِيفَةِ فِي نَفْسِهَا حَتَّى يَصِفَهَا رَبُّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ بِالْكِبَرِ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ، إِنَّمَا جُعِلَتْ تِلْكَ الْحَرَكَاتُ وَالْأَقْوَالُ صُورَةً لِلصَّلَاةِ لِتَكُونَ وَسِيلَةً؛ لِتَذْكِيرِ الْغَافِلِينَ، وَتَنْبِيهِ الذَّاهِلِينَ، وَدَافِعًا يَدْفَعُ الْمُصَلِّي إِلَى ذَلِكَ التَّوَجُّهِ الْمَقْصُودِ الَّذِي يَمْلَأُ الْقَلْبَ بِعَظَمَةِ اللهِ وَسُلْطَانِهِ حَتَّى يَسْتَسْهِلَ فِي سَبِيلِهِ كُلَّ صَعْبٍ، وَيَسْتَخِفَّ بِكُلِّ كَرْبٍ، وَيَسْهُلَ عَلَيْهِ عِنْدَ ذَلِكَ احْتِمَالُ كُلِّ بَلَاءٍ، وَمُقَاوَمَةُ كُلِّ عَنَاءٍ، فَإِنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ شَيْئًا يَعْتَرِضُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا وَيَرَى سَيِّدَهُ وَمَوْلَاهُ أَكْبَرَ مِنْهُ، فَهُوَ لَا يَزَالُ يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ، حَتَّى لَا يَبْقَى فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ كَبِيرٌ، إِلَّا مَا كَانَ مُرْضِيًا لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ، الَّذِي يَلْجَأُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَادِثِ، وَيَفْزَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْكَوَارِثِ) [1]

---

(1) تفسير المنار ج2 / 36 – 37

ويحك يا صاح..

لديك همومٌ كالجبال، ويضيق صدرك بالأحمال الثقال، ثم تتأخر وتتكاسل عن إجابة دعوة مولاك في الصلاة؛ ليفيض على قلبك نسمات الأنس ويمنحك السكينة والرضا!

ألك ملجأ إلى غيره، أم لك مفزع إلى سواه، أم أن طول الغفلة قد أصابك بالصمم فلم تسمع نداء مولاك؟!

من ثمرات الابتلاء:

ما وجدت بلسمًا شافيًا وعلاجًا كافيًا لمتاعب الحياة ومشاكلها اليومية؛ مثل الصبر والصلاة. ففي الصبر تفويض للملك الواحد الأحد، ورضا بما قدّر ودبّر، وبالصلاة يستمد المؤمن الهداية والإعانة والسداد من ربه، دون انقطاع.

لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

(الشاكرون أطيب الناس نفوسًا، وأشرحهم صدورًا، وأقرهم عيونًا، فإن قلوبهم ملآنة من حمده، والاعتراف بنعمه، والاغتباط بكرمه، والابتهاج بإحسانه، وألسنتهم رطبة في كل وقت بشكره وذكره، وذلك أساس الحياة الطيبة، ونعيم الأرواح، وحصول جميع اللذائذ والأفراح، وقلوبهم في كل وقت متطلعة للمزيد، وطمعهم ورجاؤهم في كل وقت بفضل ربهم يقوى ويزيد) [1]

(الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -)

---

(1) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة ص 80

ابتلاء النعمة بين الشكر والجحود:

ينطلق المؤمن في سيره إلى الله – تعالى – معتمدًا على دعامتي الصبر والشكر، فيرتقي بهما في مدارج الإيمان ومنازل العبودية. لذا كان لابد أن يتعرض – في رحلته على الأرض – لامتحانات متنوعة، واختبارات مختلفة؛ من أجل تقوية هاتين الدعامتين.

وإذا كان أكثر الناس يظنون أن الابتلاء يكون بالضراء والشدائد والمكاره فقط، فقد نص القرآن الكريم على اعتبار النعمة ابتلاء، تمامًا كالمحنة ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:35).. والابتلاء بالخير يشمل: القوة والسلطان والنفوذ، والجاه وعلو المناصب والمكانة الاجتماعية، وفَرَهِ المراكب ووسائل المواصلات الفارهة والمنازل الفاخرة، والصحة والمال الوفير والعلم الغزير و... ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (إبراهيم:34)

وهكذا كل ما أنعم الله – تعالى – به على عباده في حقيقته امتحان واختبار يكشف عن أصحاب النفوس السوية والقلوب اليقظة التي تقودها هذه النعم إلى المنعم – عز وجل –، فتوظف نعمه في طاعته ومرضاته، كما تفضح أصحاب الفطر المنحرفة والقلوب الجاحدة التي تقودهم النعم إلى البطر والغرور والاستكبار والطغيان!

وقد عرض كتاب الله – تعالى – نموذجين متناقضين في كيفية التعامل مع النعم تنبيهًا للعباد لسلوك السبيل الأمثل لشكر النعمة:

1- نموذج الملك الشاكر سليمان - عليه السلام -:

فقد آتاه الله ملكًا لم يعطه أحدًا غيره، كما جمع الجن والإنس والطيور والوحوش في خدمته ورهن إشارته، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وعلمه منطق الطير وأتاه من كل شيء. وقد نظر سليمان – عليه السلام – إلى كل هذا الملك العريض والخير العميم على أنه ابتلاء وامتحان من الله – تعالى – وليس دليل كرامة وامتياز – كما يعتقد الغافلون – فهتف من أعماقه، محدّثًا بنعمة اللّه عليه، داعيًا الناس أن يشهدوا عليه، وهو بين يدي نعم اللّه السوابغ عليه ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي﴾ **(النمل:** 40)

كما تضرع سليمان – عليه السلام – إلى ربه؛ ليعينه على شكر النعم التي تظاهرت عليه ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ **(النمل:**19).

(أوزعني) اجمعني كلي.. اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي، وكلماتي وعباراتي، وأعمالي وتوجهاتي. اجمعني كلي.. اجمع طاقاتي كلها.. أولها على أخرها وآخرها على أولها

[وهو المدلول اللغوي لكلمة أوزعني] [1] لتكون كلها في شكر نعمتك علي وعلى والدي. وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مست قلب سليمان – عليه السلام – في تلك اللحظة، ويصور نوع تأثره، وقوة توجهه، وارتعاشة وجدانه، وهو يستشعر فضل الله الجزيل، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه، ويحس مس النعمة والرحمة في ارتياع وابتهال) [2]

وهكذا شأن الربانيين، يستقبلون الإحسان بالإحسان، ويتلقون الخير بالخير، بل إن نفوسهم لتضيق بالإحسان، وتراه حملًا ثقيلًا عليها، إذا هي وجدت ضعفًا عن القيام بشكره، وكلما زادهم الله من عوارض نعمه، قوة ومجدًا وغنًى، ازدادوا رجوعًا إلى أصل فاقتهم، عبودية وتذللًا وانكسارًا لله – عز وجل.

---

(1) ذكر الإمام الراغب في معنى ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾: (الوُزُوعُ: الولوعُ بالشيء. يقال: أَوْزَعَ اللهُ فلانًا: إذا ألهمه الشّكر، وقيل: هو من أُوْزِعَ بالشيء: إذا أُولعَ به، وقيل معنى (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ: ألهمني، وتحقيقه: أولعني بذلك، واجعلني بحيث أَزِعُ نفسي عن الكفران).
وخلاصة المعنى كما ذكر د. صلاح الخالدي: (ألهمني شكر نعمتك، واجمعني على شكر نعمتك، واصرفني إلى شكر نعمتك، واحبسني على شكر نعمتك، وامنعني عن كل ما يؤخرني عن شكر نعمتك، وكفني عن الاشتغال بأي شيء يلهيني عن شكر نعمتك، ووجهني إلى طريق واحد وهو شكر نعمتك) (القصص القرآني ج 3/ 522)

(2) في ظلال القرآن ج5 / 2637

النموذج الثاني: الغني الجاحد (قارون):

يعد قارون مثالًا صارخًا، ونموذجًا شاخصًا، للدلالة على جحود الإنسان لنعمة مولاه، وبطره وطغيانه على خلق الله. فقد اغتر بكنوزه الهائلة وانخدع بثرواته العظيمة وأمواله الكثيرة فأسكرته نشوتها، واستبد به فرح الزهو والعجب والخيلاء، واتخذ من ثرواته وسيلة للبغي والفساد والطغيان حتى قال في جحود واضح وكبر فاضح ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ (القصص: 78) أي: أوتيته بعلمي، بمهاراتي، بقدراتي، بأفضليتي واستحقاقي لهذا المال.

لم يدرك قارون حقيقة ابتلاء الله - تعالى - له بالمال، وأن إنعام الله على أحد بالمال ليس دليلَ محبته له، وأن تقليل المال في يد آخر ليس دليل غضب الله - تعالى - عليه، وأن المال ليس هو مظهر التكريم أو الإهانة، لم يعرف قارون كل هذا. ولهذا سقط في الامتحان ورسب في الاختبار، واستحق غضب الله - تعالى - وسخطه، فحلت عليه العقوبة، وحاق به العذاب.

وما أكثر الناس الذين تستخفهم كثرة النعم وتتابع العطاء حتى ظنوا فيها دليلًا على رضا الله ومحبته، يرددون بلسان الحال أو المقال قولة قارون المغرور المطموس الذي نسي مصدر النعمة، وتنكر لصاحب الفضل، وكفر بمن يستحق الشكر!

قصة الأعمى والأقرع والأبرص:

وقد حدثنا الرسول - ﷺ - عن هذين الصنفين من الناس: الكافرين بالنعمة، والشاكرين لها، فيما روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: (إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، بَدَا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ (اشمَأَزُّوا مِنْ رُؤْيَتِي)، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوْ قَالَ: الْبَقَرُ، هُوَ شَكَّ فِي ذَلِكَ إِنَّ الْأَبْرَصَ وَالْأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا: الْإِبِلُ، وَقَالَ الْآخَرُ: الْبَقَرُ؛ فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا، وَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ. قَالَ: فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلًا، وَقَالَ: يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا، وَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا (حَامِل)، فَأُنْتِجَ هَذَانِ (أي: صَاحِب الْإِبِل وَالْبَقَر) وَوَلَّدَ هَذَا (أي: صَاحِب الشَّاة، وَهُوَ بِتَشْدِيدِ اللَّام)، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ غَنَمٍ، ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، تَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي(أي:

الأَسْبَاب الَّتِي يَقْطَعُهَا فِي طَلَب الرِّزْق)، فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا؛ أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ؛ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ: لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِر(أي: كَبِير عَنْ كَبِير فِي الْعِزّ وَالشَّرَف)، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، وَابْنُ سَبِيلٍ، وَتَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ بَصَرِي، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ (أي: لَا أَشُقّ عَلَيْك فِي رَدّ شَيْء تَطْلُبهُ مِنِّي أَوْ تَأْخُذهُ)، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ؛ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ) [1]

ويعجبني ما قاله الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – وهو يصلح ليكون تعقيبًا على القصة السابقة: (إن الأمر بالشكر ليس تكليف مشقة يصبر الناس على أدائه، بل هو طريق كمال ينبغي أن يسير الناس فيه بهمة وقدرة، والإقرار بالجميل، وركون الفؤاد إلى صانعه يجعل المرء أهلًا للمزيد؛ لأن النعمة تثمر فيه، كما يثمر الماء فى الأرض الخصبة،

(1) صحيح البخارى رقم(3464)، ومسلم رقم(7619)

ولذلك لا يضن عليها بالقليل والكثير، أما الأرض السبخة فإن انعدام الأمل فى ريها يجعل إرسال الماء إليها عبثًا، ولذلك يقطع عنها ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم:7)، وشدة العذاب كفاء لخباثة الجحود!. وماذا على الناس إذا مرحوا في نعمة الله – تعالى – أن يطووا ضمائرهم على عرفان الجميل والاعتراف بالفضل، وأن يقولوا لله المنعم: نشكرك. أهذا كثير أم هذا ثقيل؟) [1]

يقول محمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة	**علي له في مثلها يجب الشكر**
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله	**وإن طالت الأيام واتصل العمر**
إذا مس بالسراء عم سرورها	**وإن مس بالضراء أعقبها الأجر**
فما منهما إلا له فيه نعمة	**تضيق بها الأوهام والسر والجهر**

ركائز الشكر:

عرف الإمام ابن القيم – رحمه الله – الشكر؛ فقال:(الشُّكْرَ: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة) [2]

---

(1) الجانب العاطفي من الإسلام ص 183

(2) المهذب من مدارج السالكين ص 236

ومن التعريف السابق يتبين أن الشكر يقوم على ثلاث ركائز أساسية:

1 - **شكر القلب:** ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (**النحل**: 53):

وهو معرفة القلب وإقراره بأن ما بالعبد من نعمة؛ فهو من الله - تعالى -، وأن ذلك إحسان من المنعم - جل وعلا - وتفضل على عبده، وأنه لا حول له ولا قوة، بل إن وصولها إليه بغير استحقاق منه ولا بذل ثمن، فعليه أن يتلقاها بإظهار الفقر والفاقة إليها، وأن يستكثر قليلها عليه، ويستقلَّ كثير شكره عليها.

2 - **شكر اللسان** ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ (**الضحى**:11):

وهو الثناء على الله - تعالى - بنعمه، وحمده عليها مع محبته والتحدث بها على سبيل الاعتراف بفضله وإظهار الفاقة، لا لرياء وسمعة وخيلاء، ليكون الذكر داعيًا إلى شكر القلب والجوراح.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - في بيان النعم التي يجب على المرء استحضارها في فكره؛ ليقوم بواجب شكرها: (النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها، فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرّفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيدًا يقيّدها به حتى لا تشرد؛ فإنها تشرد بالمعصية، وتُقيّد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب النعمة المنتظرة، وبصّره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها، ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرّفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها) [1]

(1) فوائد الفوائد ص 348

وقد علمنا النبي - عليه الصلاة والسلام - الثناء على نعمة ربنا ضمن دعاء نبوي يفيض إيمانًا وشكرًا، فإذا أصبح وإذا أمسى، يقول: (اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ، لَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ) وأخبر أن (من قالها حين يصبح فقد أدى شكر يومه. ومن قالها حين يمسي فقد أدى شكر ليلته)[1]

3 - **شكر الجوارح**: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ (سبأ:13)

وشكر الجوارح معناه: قيام الجوارح بالعبودية لله رب العالمين؛ لأن كل جارحة لها حظها من العبودية، ولا يتم ذلك إلا بالعمل بطاعة الله - تعالى - وطاعة رسوله، بفعل المأمور واجتناب المحذور، ويدخل في ذلك صرف نعمه فيما يحبه ويرضاه، والاستعانة بها على طاعته، والحذر من صرفها في معصيته، أو الاستعانة بها على ذلك.

فشكر نعمة المال إنفاقه في وجوه البر والخير المختلفة، والبذل للفقراء والمساكين والمحتاجين، واجتناب الإسراف والتبذير والشح والتقتير.

وشكر نعمة الصحة استثمارها فيما يحب الله - تعالى - ويرضى في أداء الطاعات، والبعد عما يضر بها ويجلب لها الأمراض والأسقام كالتدخين والمسكرات، وغيرها.

وشكر نعمة العلم نشره وبثه في الناس، وبالنصح لأئمة المسلمين وعامتهم، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على مشقة ذلك.

---

(1) رواه أبو داود 5073

وشكر نعمة الزواج تأسيس بنيانه على طاعة الله - تعالى - في ظلال من الأنس والسكينة والمودة والرحمة، وحماية هذا البنيان من عوامل الهدم كالشقاق والخصام.

كفران النعم بين الاستدراج والإمهال:

ولعل المرء يتسائل عن أحوال أفراد وجماعات وأمم لجوا في دوامة الطغيان واستمرئوا الفساد والعصيان، ولم تنقطع عنهم نعم الله وعطاياه، بل ربما تكاثرت وتتابعت عليهم ألوان النعم واللذائذ والمشتهيات؟!

أقول لك: إن شأن الله - تعالى - فيمن أصر على الطغيان والاستكبار ولم يبال بالوعيد، ولم يكترث بالنذير؛ أن يمده بمزيد من النعم، وأن يسكره بمزيد من المتع والرغائب، استدراجًا له إلى مزيد من التيه والضلال. قال الله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ (**الأنعام:44**)

(**والتعبير القرآني**: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يصور الأرزاق والخيرات، والمتاع والسلطان متدفقة كالسيول، بلا حواجز ولا قيود، وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة، واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها - بلا شكر ولا ذكر - وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المُنعم ومن خشيته وتقواه، وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع، وتبع ذلك

فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وجرَّ هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها؛ عندئذٍ جاء موعد السنة التي لا تتبدل ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، فكان أخذهم على غرة، وهم في سهوة وسكرة. فإذا هم حائرون منقطعوا الرجاء في النجاة عاجزون عن التفكير في أي اتجاه، واذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم)[1]

ألا ترى إلى فرعون لما ركب رأسه في البغي والطغيان، وأصر على الاستخفاف بالنذر التي سيقت إليه، تركه الله– تعالى – لشأنه، وأمكنه من الوصول إلى المزيد من مظاهر العتو والتمكين، حتى إذا لم يشك أن الدنيا في قبضته وأن القضاء ليس إلا قضاءه، أغرقه في اليم، ودمر ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: 137)

وكذلك قارون لما ركن إلى الاستكبار والطغيان وانخدع بالكنوز والثروات؛ استدرجه الله إلى المزيد من ذلك، حتى خُدع الجاهلون بسلطانه وأمواله، وظنوا أنها نعمة دائمة أورثها الله إياها، فقالوا ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص: 79)، حتى إذا ما وصل إلى أوج غناه وقوته، أهلكه الله – تعالى – في لحظة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص: 81).

وهكذا سنة الله– تعالى – مع الطغاة والمستكبرين!، ولكن ما أقل المعتبرين!

(1) في ظلال القرآن ج2/ 1090

من ثمرات الابتلاء:

في اللحظة التي تدرك فيها أن ورود النعم عليك، وتتابع العطاء بمثابة (ابتلاء واختبار) لا يقل أهمية وخطورة عن ابتلاء المنع والضراء؛ تتفتح منافذ قلبك لمراقبة جوارحك كيف تستثمر هذه النعم فيما يرتقي بك في منازل الإيمان عبر تحقيق الشكر العملي الذي يعصمك من البطر والغرور والطغيان.

إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ

(ما أعجب لطف الله – عز وجل – بعباده الصالحين!

إنظر إلى لطفه سبحانه بنبيه يوسف – عليه السلام، تتعاقب عليه الشدة والرخاء، اليسر والعسر.. غيابة جب ثم دهاليز قصر، غياهب (ظلمات) سجن، ثم مقاليد حكم!

حقًّا.. من درى حكمة الله – عز وجل – ولطفه في تصريف الأمور، وجريان الأقدار؛ لن يجد اليأس إلى قلبه سبيلًا، مهما أظلمت المسالك، وتوالت العقبات، وتكاثرت النكبات)

من أسرار اسم اللطيف:

من أروع الأسماء الحسنى التي يستحضرها المؤمن في أوقات المحن والشدائد اسم (اللطيف)، فهو يؤنس وحشة النفوس المكروبة، ويخفف من حدة آلامها ومعاناتها، ويزيل خوفها وقلقها واضطرابها، ويسكب في القلوب المكدودة أريج الأمل والتفاؤل، ويمدها بزاد عظيم من الرجاء وحسن الظن بالله- تعالى -، ويعلمها الرضا بقضائه والتوكل عليه في كافة الأمور.

فما معنى اسم اللطيف؟!

قال الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله -:

(اللطيف هو الذي يعلم دقائق الْمصَالح وغوامضها، ثمَّ يسْلك فِي إيصالها إِلَى المستصلح سَبِيل الرِّفْق دون العنف. فَإِذا اجْتمع الرِّفْق فِي الْفِعْل واللطف فِي الْإِدْرَاك، تمّ معنى اللطف، وَلَا يتَصَوَّر كَمَال ذَلِك فِي الْعلم وَالْفِعْل إِلَّا لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -) [1]

وأضاف الإمام ابن القيم - رحمه الله -: (واسمه اللطيف يتضمن: علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية) [2]

(1) المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى ص 101

(2) شفاء العليل 1/ 147

ويقول عن هذين المعنيين في نونيته:

وهو اللطيف بعبده ولعبده	**واللطف في أوصافه نوعان**
إدراك أسرار الأمور بخبرة	**واللطف عند مواقع الإحسان**
فيريك عزته ويبدي لطفه	**والعبد في الغفلات عن ذا الشان**

وما أجمل ما قاله الشيخ السعدي - رحمه الله - وهو يشرح اسم اللطيف:

(الذي لطف علمه حتى أدرك الخفايا، والخبايا، وما احتوت عليه الصدور، وما في الأراضي من خفايا البذور. ولطف بأوليائه، وأصفيائه، فيسرهم لليسرى وجنبهم العسرى، وسهل لهم كل طريق يوصل إلى مرضاته وكرامته، وحفظهم من كل سبب ووسيلة توصل إلى سخطه، من طرق يشعرون بها، ومن طرق لا يشعرون بها، وقدر عليهم أمورًا يكرهونها لينيلهم ما يحبون، فلطف بهم في أنفسهم فأجراهم على عوائده الجميلة، وصنائعه الكريمة، ولطف لهم في أمور خارجة عنهم لهم فيها كل خير وصلاح ونجاح) [1]

---

(1) توضيح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ص192.. للشيخ السعدي - رحمه الله - كلام رائع في بيان مظاهر لطف الله بعباده ذكره في كتابه (المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص 146 - 155)، فارجع إليه فإنه يشفي الغليل ويروي العليل.

يوسف – عليه السلام – وتجليات اللطف الرباني: (1)

إن المتدبر لقصة يوسف – عليه السلام – ليجد أنها تحمل من أنوار وتجليات اسم اللطيف ما يعجز القلب عن تخيل وقوعه وتصور حدوثه، فكل ما أصاب يوسف من محن وشدائد تحولت بلطفه سبحانه الخفي إلى منح وعطايا حتى صار ملكًا متوجًا بعد أن كان حبيس جب ونزيل سجن!

لقد كانت حياة يوسف سلسلة متصلة من المحن والشدائد، واجه فيها كيد الإخوة، ووحشة الجب، وألم الغربة والرق، وفتنة الإغراء والشهوة، وظلمة السجن بعد رغد العيش وطراوته في قصر العزيز، ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق في يديه، وهو يتحكم في أقوات الناس وفي رقابهم.. ولكن تدبير الله اللطيف جعل له في كل محنةٍ منحةٍ، ومع كل عُسرٍ يسرًا، نجاة من كل ابتلاءٍ سالمًا معافًا في نفسه ودينه، فكانت له المنن في ثنايا المحن.

وأود أن أستعرض معك طرفًا من لطف الله – عز وجل – بيوسف في مواقف حياته المختلفة ومحنه المتتالية:

1 – محنة كيد الإخوة والإلقاء في الجب:

بدأت محنة يوسف عندما نبتت نبتة الحقد والحسد في قلوب إخوته نتيجة حب أبيهم الشديد ليوسف، فقرروا التخلص منه حتى يخلو لهم وجه أبيهم، فأعدوا عدتهم وأحكموا خططهم وجهزوا حججهم، وتجردوا من

---

(1) استفدت من التعليق على جوانب اللطف في قصة يوسف من كتاب (الإنسان بين السراء والضراء – د. محمد السيد يوسف) وكتاب (لمسات قدرية في سورة يوسف – د. مأمون جرار)

مشاعر الإخوة ولبسوا ثياب الذئاب، وألقوا أخاهم- بغير ذنب جناه- في جب موحش مظلم.. ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (**يوسف**:15)، في هذه اللحظة يتنزل اللطف الإلهي؛ ليحفظ يوسف ويثبته ويطمئنه، يزيل عنه وحشته، ينير له كل ظلمة، يذهب عنه كل حزن، يفرج عنه كل كرب، ييسر له كل عسر، يمسح عنه كل دمعة، ينزع عنه كل أسى وألم.

2 - محنة الرق:

خرج يوسف من محنة الجب مباشرة إلى محنة الرق والعبودية، وتداولته الأيدي- كالسلعة- تبيعه وتشتريه بثمن بخس، وتجلت ألطاف الله - تعالى - مرة أخرى - في كون القافلة التي التقطت يوسف كانت متجهة من الشام إلى مصر، ولم تكن متجهة من مصر إلى الشام، فقد رتب الله - تعالى - بلطفه ليوسف دورًا في مصر لا في سواها، كما قدر الله- تعالى - أن يشتريه عزيز مصر، وأن ينعم في بيته بالمحبة والاهتمام والرعاية ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ (**يوسف**: 22)

3 - محنة المراودة والشهوة:

انتهى المطاف بيوسف إلى قصر العزيز بمصر، حيث كانت تنتظره أعظم المحن في حياته (محنة المراودة)، وبدأت سيدة القصر تنصب الشباك لفتاها، فتتزين له كأبهى ما يكون التزين، وتلين له الكلام، وتفرش له الطريق إلى ودها، وتستخدم في ذلك كل أسلحة الاغراء التي تملكها، بل وصل بها الأمر

- وقد هاج بها بركان الشهوة وازدادت رغبتها في يوسف - أن صرحت بذلك ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، وهنا التجأ يوسف إلى ربه يطلب منه العون والحماية والاستغاثة، فاستجاب له وعصمه من هذه الفتنة الطاغية والمحنة القاصمة ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: 25)، ثم زاد الأمر سوءًا عندما دخل صواحب امرأة العزيز على الخط، وحاولن إغواء يوسف، وكأن كيد النسوة هو الريح التي دفعت شراع يوسف نحو محطة جديدة وميناء جديد في رحلته، يقوده فيما بعد إلى الملك والتمكين، وهنا كان السجن هو المحطة التالية ليوسف يجد فيه أمنًا من الإغراءات ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(يوسف:35)

4 - محنة السجن:

كان السجن الثمنَ الذي دفعه يوسف مقابل عفته وطهارته، وترفعه عن الرذيلة، وسموه عن الفحشاء، وكان من لطف الله به أن فتح له بابًا إلى الدعوة إلى الله وتأويل الأحاديث. فبعد أن قام بتأويل الرؤيا للسجينين اللذين كانا معه، طلب من أحدهما أن يرفع قضيته إلى الملك ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، ونسي الساقي أمر يوسف، ومكث يوسف في السجن بضع سنين، حتى جاءت اللحظة الحاسمة لخروج يوسف من السجن عبر رؤيا عجيبة رآها الملك ولم يجد جوابًا شافيًا عند حاشيته، وهنا تذكر الساقي يوسف - عليه السلام - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾

وهكذا.. (عندما أراد اللطيف أن يُخرج يوسف – عليه السلام – من السجن؛ لم يدكدك جدران السجن، لم يأمر مَلَكًا أن ينزع الحياة من أجساد الظلمة، لم يأذن لصاعقة من السماء أن تقتلع القفل الحديدي.. فقط جعل الملِك يرى رؤيا في المنام تكون سببًا خفيًّا لطيفًا يستنقذ به يوسف الصدّيق من أصفاد الظلم!) (1)

وتتابعت الأحداث وخرج يوسف من محنة السجن عزيزًا مكرمًا؛ ليتولى خزائن الأرض ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (يوسف:56)

في هذه اللحظة الحاسمة في سيرة يوسف، تتجلى كل لمسات اللطف السابقة:

الرؤيا التي رآها، ومفارقته أباه بكيد الإخوة، وانتقاله إلى مصر بتدبير القدر الإلهي، وشراء عزيز مصر له، وشغف امرأة العزيز به وتمنعه واعتصامه بربه، وإلقاؤه في السجن، وتوافق سجنه مع صاحبيه اللذين يصبح أحدهما ساقي الملك، ورؤيا الملك التي تأتي بعد حين، كل ذلك كان تمهيدًا ومقدمة لبداية التمكين.

من كان يتخيل أن يكون الجب الموحش، ثم السجن المظلم بوابة الملك والتمكين!

ولكنّ اللطيف سبحانه يقدر الأقدار، ويصرّف الأمور، ويخرجه من السجن، ويجعله في منصب رفيع، ثم يقدّر القحط على البلاد،

(1) لأنك الله رحلة إلى السماء السابعة ص 55 – 56 – علي الفيفي

ثم يأتي بإخوته في ثياب الذل.. وما تزال أقدار اللطيف تلتف؛ لتحقق تلك الرؤيا القديمة، فينبهر يوسف لسجود والديه وإخوته، ويقول: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (يوسف:100)

إن هذه القصة الرائعة، الغنية بالألطاف الإلهية، تلخصها حكمة ابن عطاء القائلة:

(من ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره)

ويعجبني ما قاله البوطي - رحمه الله - في التعليق على هذه الحكمة:

(اعلم أن اللطف هو المراد، وهو الأصل في أقدار الله - عز وجل - التي قد تتمثل بأنواع من الشدائد والابتلاءت، أي أن الشدائد التي قد يبتلي الله بها عباده، خدمٌ وأدوات لألطافه، وليست هي المرادة لذاتها.. فما يبتلي الله عبده بفقر بعد غنى، أو بمرض بعد عافية، أو بشدة بعد رخاء؛ إلا لأن في ذلك علاجًا لآفة انتابته أو لسوءٍ حل به. ولاشك أن المظهر يحمل إلى صاحبه معنى من معاني الشدة، لعدم اطلاعه على الغيب، ولتخيله الأمر على خلاف حقيقته، ولكن هذا المظهر الخادع لا عبرة به، وإنما العبرة بالنتائج والثمرات، والنتائج تحمل لصاحبه ما كان يتأمله، أو فوق الذي كان يتأمله، وهذا هو اللطف من الله بعينه) [1]

(1) الحكم العطائية شرح وتحليل ج 2/ 523 - 524 بتصرف

من إشراقات اللطيف في حياتي:

وإنني عندما أقلب في دفتر حياتي؛ لأتأمل صفحات المحن والابتلاءت، ألمح لطفًا خفيًّا في كل مواقف حياتي، فقد كانت محنة ترك العمل ومفارقة الزوجة ونكران الناس وإيثار العزلة سببًا في فتح بابٍ واسعٍ إلى التأمل والتفكر، حتى أكرمني الله - عز وجل - بالكتابة، ووجدت فيها الدواء الشافي لمعظم همومي وأحزاني، ورزقني الله فيها خيرًا كثيرًا، لم أكن يومًا أتخيله أو أطمح إليه [1]. ثم لطف بي مرة أخرى وعدت إلى عملي بعد انقطاع دام عامين، ثم أكرمني مؤخرًا بالزواج مرة أخرى، بعدما تغيرت نظرتي للحياة، وأصبحت أصلب عودًا وأقوى عزيمة، وأكثر تجربة وأعظم احتمالًا. وما زلت أطمع في كرم ربي اللطيف!

تُرى.. بعد كل هذه المنح والعطايا التي توافدت عبر بوابة الألم والمعاناة، كيف كان ينبغي عليّ أن أنظر إلى محنتي السابقة التي استغرقت أربع سنوات تجرعت فيها مرارة الأسى والحرمان، وتكاثفت على قلبي سحب الهموم والأحزان؟!

هل كنت محقًّا عندما تسرب اليأس إلى قلبي، واسودت الدنيا في عيني حتى لم يعد لي رغبة بالبقاء في هذه الحياة؟!

---

(1) أكرمني الله - عز وجل - بستة كتب مطبوعة- غير هذا الكتاب الذي بين يديك - لاقت نجاحًا لا بأس به، كما منّ عليّ بالمشاركة ببحثين ضمن موسوعة قرآنية ضخمة بعنوان (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) وهي تحت الطبع.

أخي،

وأنت - أيضًا - فتش في دفتر حياتك، وابحث عن ألطاف الله - عز وجل -، وتأمل كيف منعك ليعطيك، وحرمك مما تشتهي وتحب لأنه يعد لك شيئًا أفضل مما تتصور. وأذاقك طعم الألم لتتعلم كيف تنكسر في محراب العبودية والافتقار!

هل تذكر عندما منعك الله - عز وجل - مما كنت تحلم به وتطمح إليه من النجاح في دراسة معينة أو إنجاز مشروع ما أو الزواج بمن تهوى وتحب، ثم إنه فتح لك على أعقاب ذلك المنع، وبسببه؛ سبيلًا إلى رزق وفير وعيش رغيد، ولعلك لو نجحت فيما كنت تسعى إليه وتطمع فيه، لوقف نجاحك سدًّا في بلوغ ما يسّره الله - عز وجل - لك!

حقا إنه للطف كبير وعجيب من الله بالعبد أن يراه متعلقًا - لجهالته - بآمال ظاهرها الخير وفي خفاياها البلاء الكبير، فيصرفه ويقصيه الله بلطفه ورحمته عن تلك الآمال، ويكرمه بما يتأمله ويبتغيه من ورائها، مما قد يحقق له الخير ويصرف عنه أسباب الشقاء.

من ثمرات الابتلاء:

متى رأيت رياح اليأس تهب على قلبي، تذكرت نفحات اللطف الرباني عندما أخرجتني من محن سابقة وشدائد ماضية إلى أفياء واحة ظليلة أجد فيها من برد اليقين، ونسمات الرضا، وشلالات السكينة والطمأنينة؛ ما يداوي قلبي العليل في أحلك الظروف وأصعب الأزمات.

أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

(اضطرار العبد هو أخص أوصاف عبوديته، والاضطرار المطلوب منه: هو ألا يتوهم من نفسه حولًا ولا قوة، ولا يرى لنفسه سببًا من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه، بل يكون بمنزلة الغريق في البحر، أو التائه في التيه القفر لا يرى لغياثه إلا مولاه، ولا يرجو لنجاته من هلكته أحدًا سواه)[1]

(الشيخ عبد المجيد الشرنوبي)

---

(1) شرح الحكم العطائية ص 103

عجزي كنزي:

في حياة كل واحد منا أوقات يقوده فيها العجز التام وقلة الحيلة إلى التذلل والانكسار بين يدي الرحمن - عز وجل -، يبثه همومه، يرفع إليه شكواه، يشكو إليه ضعفه عن تحمل البلاء، وعجزه أمام الحمل الثقيل والذنب الوبيل، وافتقاره لتدبير مولاه يختار له ما يصلحه ويحقق الخير له.

إنها لحظات تتجسد فيها عبوديتك للملك - عز وجل - فتنتشلك من بحار الشهوات وأمواج المغريات، فتشعر بعدها بسعادة غامرة ولذة دائمة لا تنقطع ولا تزول حتى يستدرجك الشيطان مرة أخرى إلى مستنقع الغفلة والعصيان، غير أن هذه اللحظات تكاد تختفي أو تتوارى في أوقات العافية والرخاء، فتفتر النفس وتجف أشواق الروح وتنزوي عواطف القلب، فتأتي أوقات الشدائد والكربات؛ لتذكر النفس بحقيقة اضطرارها وعجزها وافتقارها الدائم لمولاها، فإذا ما أفضى الإنسان المحزون والمكروب إلى ربه ما يعانيه، وطلب منه سبحانه ما يبتغيه؛ فإنه يشعر بطمأنينة قلبية وسكينة روحية تنشله مما هو فيه من الهم والضيق.

قال الله – عز وجل –: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ .. ﴾

(النمل:62)

(فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله، يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء، ذلك حين تضيق الحلقة، وتشتد الخنقة، وتتخاذل القوى، وتتهاوى الأسناد، وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجردًا من وسائل النصرة وأسباب الخلاص. لا قوته، ولا قوة في الأرض تنجده. وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلى، وكل من كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى. في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة، ويتجه الإنسان إلى الله، ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء. فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه. هو وحده دون سواه. يجيبه ويكشف عنه السوء، ويرده إلى الأمن والسلامة، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق) (1)

إنه شعور الداعي ويقينه بأنه منقطع الآمال عن الخلائق كلهم إلى الله وحده، يعتمد في تحقيق رغائبه، وفي دفع مخاوفه، ويهتف في ضراعة وخشوع وإخلاص: (يا رب.. يا رب)؛ فتخمد نيران القلق، وتزول وحشة الألم، وتذهب هموم الروح.

فيا لسعادة القلب وأنس الخاطر بصلته بمولاه الجبار في لحظات الاضطرار، عندها تتفجر ينابيع الافتقار؛ لتملأ القلب بالغيث المدرار بعد طول اشتياق لتمنحه السكون والاستقرار!

---

(1) في ظلال القرآن ج 5/ 2658

فَإِنِّي قَرِيبٌ:

قال الله – عز وجل –: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: 186)

هذه الآية من أروع ما يحتاج المرء لاستحضارها وتدبرها في حالات العجز الشديد والوهن المرير، إنها آية تسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة، والود المؤنس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين، ويعيش منها المؤمن في جناب رضي، وقربى ندية، وملاذ أمين وقرار مكين.

(فَإِنِّي قَرِيبٌ): يَسمع عبده إذا شكا، ويُجيبه إذا دعا، ويأخذ بيده إذا كبا، ويمدُّه إذا ضعُف، ويعينه إذا احتاج، ويلطف به إذا خاف.

(فَإِنِّي قَرِيبٌ): قرب خاص من عابديه، وسائليه، ومجيبيه، وهو قرب يقتضي المحبة، والنصرة، والتأييد في الحركات، والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول، والإثابة.

(فَإِنِّي قَرِيبٌ): فلمن إذاً يشكو الموجوعون؟، وإلى من يستصرخ المستصرخون؟، ومن غير(القريب المجيب) يُضرع إليه في الكروب، وتُبسط له الأيدي في الملمات، وتتجه الوجوه إليه في الشدائد، ويُرجى لدفع الضر وكشف البلاء!

(فَإِنِّي قَرِيبٌ): قربه – سبحانه – منك يغريك بالوصل بعد الهجران، ويولد الحياء من طول البعد والجفاء!.. وإجابته دعاءك تحفزك على تحطيم جدران اليأس والقنوط، والتوجه إليه بقلب مفعم بالأمل والرجاء.

استمداد القوة من الله:

هناك حالات يشعر الإنسانُ فيها – أمام قسوة الحياة وضغط المشاكل وتراكم الأزمات – أنّه بحاجةٍ إلى التعبير عن الآلام التي تمزّق ذاته، والمشاعر التي تجيش بنفسه، كما أنه بحاجة إلى مقاومه إحساسه بالعجز وقلة الحيلة في مواجهة ما يحيط به من شدائد وملمات، فلا يصبح فريسة سهلة للمخاوف والأوهام تمزق قلبه وتشتت فكره وتجعل حياته مقرًّا للآلام النفسية والجسدية التي يولدها كلٌّ من الإحباط واليأس.

وهنا يأتي دور الدعاء الذي يمثل السند الحقيقي للمرء، ليخرجه من عجزه وخوفه وحزنه، فالدعاء هو سبيل القوة الحقة، فلا يُقضى على النفس ويوردها موارد التهلكة كإحساسها بالضياع وفقدان السند المعين واليد الحانية، إنه إحساس يأتي على كل ما فيها من قوة وثقة وعزيمة على السير إلى نهاية الطريق. (فمهما كانت الظروف تبدو مستعصية، فإن كل شيء يبقى في عداد الممكن بالنسبة لإرادة الله الغلابة، وهكذا يكون إسناد الظهر إلى الله بمثابة الإيواء إلى ركن شديد، وهذا من شأنه أن يسد– بحسب درجة الإيمان وقوته– أبواب اليأس، ويفتح أبواب التفاؤل، الأمر الذي يترتب عنه مزيد من ثقة الإنسان بما يستطيع فعله، إما في الحال، وإما على امتداد أزمة قد تطول وقد تقصر بحسب التحديات التي تواجهه) [1]

(1) فلسفة الدعاء ص 45 – د. أحمد الأبيض

(والعبد إذا انقطع عن الدعاء، يشعر بالكرب قد ألمَّ به من كل صوب وحدب، ويُخيل إليه كأنه يعيش وحده في غربة موحشة، ويجد نفسه في دوامة من الهموم والأحزان، فيضيق صدره ولا ينطلق لسانه بخير، فإذا دعا الله - عز وجل - بقلبه ولسانه واجتهد في الدعاء والضراعة؛ وجد نفسه قد أُلهمت رشدها، واستردت روحها وريحانها، واستعادت ثقتها بخالقها، وعاد إليها ما فقدته- بسب الغفلة- من نور كانت تمشي به في الناس) [1]

وكلنا جرَّب هذه اللحظات المريرة التي يعجز فيها المرء عن الدعاء، فيفقد مصدر القوة الوحيدة في الكون القادرة على اخراجه من وهدة أحزانه وهمومه!

ويحك أيها العاجز عن الدعاء..

الدعاء استقواء بالله يقتل العجز ويجهض الإحباط، ويحيي الأمل ويغرس التفاؤل، ويقطع الطريق أمام وساوس الشيطان، ويغلق أبواب اليأس، ويفتح للقلب نافذة تطل على إشراقات الأسماء الحسنى تهب روحك الأنس والسكينة والطمأنينة، ويمنحك طاقة إيجابية تحطم قيود الوهن؛ فتتفجر قدراتك وتتحرر إمكاناتك، فتتفتح لك الأبواب المغلقة لكثير من المعضلات التي توهمت أن عناكب اليأس قد عششت على أقفالها.

(1) أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها ص175 - 176 - د. محمد بكر إسماعيل

أخي،

أستطيع أن أصدق أنك عاجز عن فعل أي شيء..

عاجز عن نسيان الماضي الأليم وتجاوز ذكرياته السيئة..

عاجز عن مقاومة الضعف والعجز والاستسلام الذي ينمو كل يوم بداخلك..

عاجز عن النهوض بسب كثرة الإخفاق وتتابع الفشل..

عاجز حتى عن التفكير في أي شيء يخرجك من هذه الضائقة، فقد جربت ذلك كله وأكثر!

لكن لا أقبل ولا أتخيل أن تعجز عن الانكسار بين يدي الملك - عز وجل - تشكو إليه أوجاعك، تبثه همومك وأحزانك، تطلب منه المدد والعون، تذرف الدمع على بابه، تلقي الحمل الثقيل على أعتابه.. فإذا لم تعتمد على صاحب هذا الملكوت العظيم، فعلى من تعتمد؟!

تجربتي مع الدعاء:

أكرمني الله - تعالى - قبل بضع سنوات بزيارة بيته الحرام، وكنت ساعتها في قمة لحظات الضعف والانكسار، وقد غمرني الحزن والإحباط؛ فقد كنت على وشك فراق الزوجة وترك العمل.. فوقفت أمام الكعبة في خضوع وخشوع وإجلال داعيًا الله - عز وجل - بدعوات كثيرة لا أتذكر منها - الآن - إلا اثنتين:

الدعوة الأولى: اللهم ائذن لكتاباتي أن تبلغ الآفاق، وكنت ساعتها

لم أكتب كتابًا واحدًا، بل بضعة وريقات أشبه بمقالات قصيرة أوزعها على الأقارب والأحباب، وكنت أقصد من دعوتي تلك أن تصل هذه المقالات لعدد أكبر من الناس؛ فيعم النفع، ولم أتمن يومًا ولم أطمح أن أقوم بتأليف كتيب صغير، فاستجاب الله هذه الدعوة بعد ستة أشهر فقط، وأكرمني بأول كتاب مطبوع، ثم توالت الكتب بعد ذلك والبحوث، وتتابعت الرحمات واللطائف الربانية.

الدعوة الثانية: اللهم إن كنت قضيت في كتابك أني سأفارق زوجتي، فأكرمني بخير منها! وقضى الله بانفصالي عن زوجتي بعد عودتي من العمرة مباشرة، وظللت فترة طويلة محبطًا وعازفًا عن الزواج لا أملك إلا الدعاء، سنة تلو سنة، وأنا أدعو وأنتظر الاستجابة. أو تدري متي تحققت الاستجابة؟! بعد سبع سنوات كاملة من دعوتي أمام الكعبة المشرفة!

تخيل، سبع سنوات تقلبت فيها بين الأمل واليأس، الثقة والشك، القدرة والعجز!

سبع سنوات كاملة تعلمت فيها أن الله - عز وجل - أعلم بما يصلحني وينفعني، وأن التأخير قد يترتب عليه فوائد أكثر، وثمرات أغزر، مما كنت أتمنى أو أحلم!

تعلمت من خلالها أيضًا أنه في محراب الدعاء تستطيع أن تشكو له - سبحانه - عجزك وضعفك وقلة حيلتك وعدم قدرتك على اتخاذ

الأسباب، تشكو له استحكام أقفال اليأس وسلاسل العجز، وتسلط الشيطان وفتور الإيمان.

باختصار.. أظهر له إفلاسك وافتقارك.

صدقني كل النجاحات التي حققتها في حياتي انطلقت شرارتها الأولى عبر بوابة الإفلاس التام والعجز المطلق.

قرأت كلمات رائعة للدكتور خالد أبو شادي، وهو يتحدث عن افتقار (يونس - عليه السلام -) وهو في بطن الحوت، قائلًا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

صيحة استغاثة أطلقها يونس - عليه السلام - من أعماق قلبه الغارق في دياجي الظلم: ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، أطلقها وقد ملأته مشاعر الخوف والوحشة والوجل والرهبة، وقد تملكته حالات التضرع والخضوع والتذلل والخشوع؛ ولذا استجيب دعاؤه.

فإذا رددت هذه الكلمات دون أن تغمرك هذه الظلمات، فما حظك من دعائك غير تحريك لسانك وتضييع أوقاتك، ومعنى أن تغمرك: أن تنبض كل نبضة من قلبك بمعاني الضعف والفقر والذل والحاجة، وأن تشعر - كما شعر نبي الله يونس - أن أمواج محنتك محيطة بك من كل جانب توشك أن تغرقك، إلا أن يتداركك الله برحمة منه وفضل، وأن يبرز ذلك في كلامك واضحًا، فإن كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز، وعندها تصل إلى شاطئ الأمان كما وصل ذو النون لوعد الله في كتابه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الأنبياء: 88).

عزة الله يا سادة لا تتنزل على عزيز أو من يظن في نفسه العزة، بل على الأذلاء تمطر، وقوة الله لا يقطفها إلا من ارتقى أعلى قمم الضعف، وقدرة الله لا تمنح لقادر أو من يظن في نفسه القدرة بل لمن نشيده العجز)[1]

ولماذا تتأخر الإجابة!؟

بعض الناس عندما يظل يدعو الله كثيرًا ولا يجد استجابة لدعائه؛ يصاب قلبه بالفتور، ويهجم عليه السخط، ويزوره اليأس، فيتوقف عن الدعاء، وينقطع عن الرجاء، وهذا ناتج عن قله فهم العبد وضعف إيمانه واستعجاله لرغباته ومحبوباته.

قال رسول الله - ﷺ -: (ما من داع يدعو الله إلا أتاه بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له حاجته، وإما أن يعطيه من الخير مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها) [2]

فليس الخير دائمًا - كما تظن - في إجابة سؤالك وتحقيق طلبك، (كم من إنسان تعلق قلبه بمهنة أو بوظيفة خيل إليه أنها تحقق له أهدافه وأحلامه، وبات يدعو الله ويلحف (يُلح) في الدعاء أن تتحقق له تلك الوظيفة، وانتظر وانتظر.. دون أن تتحقق له تلك الوظيفة، حتى خيل إليه أن الله لن يستجيب دعاءه، وما هي إلا أيام حتى خلق الله له أسبابًا أخرى أوصلته إلى بغيته من حيث لم يكن يحتسب، وتأمل في الأسباب التي اختارها الله له، وإذا هي خير من الوظيفة التي كان قد تعلق بها،

(1) صفقات رابحة ص 74 - 75

(2) رواه الترمذي (3573)

بأضعاف!.. فأخذ يحمد الله أن صرفه عما كان متعلقًا به، وأكرمه بما لم يكن يخطر منه على بال)[1]

وقد تتأخر إجابة الدعاء، ليختبر الملك - عز وجل - قوة إيمانك ومتانة يقينك في مواجهة وساوس الشيطان الذي يغريك بالجزع ويدعوك إلى القنوط.

وقد تتأخر إجابة الدعاء؛ لتكتشف أن (شجرة اليقين) بحاجة إلى رعاية وعناية لتثمر وتزدهر، وذلك عبر ممارسة (مقامات العبودية) المختلفة من توبة صادقة تمحو الزلل، وانطراح على عتبة الافتقار، وحسن ظن بالله وتوكل عليه، وقوة رجاء وأمل، وطول مجاهدة يقتلع جذور اليأس والملل.

أخي،

إن إصرارك على أن يجيب الله - عز وجل - رغباتك وأمنياتك (حرفيًّا) - ولو كان فيها شقاؤك وتعاستك - يحجبك عن رؤية رحمة الله - عز وجل - ولطفه، ويفتح لك بابًا واسعًا للهم والحزن والضيق والحرمان!

---

(1) الحكم العطائية شرح وتحليل ج1 / 105.. وما أجمل ما قاله ابن عطاء الله - رحمه الله -:(لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجبًا ليأسك، فهو ضمن لك الاستجابة فيما يختاره لك، لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد)

وما أروع ما ذكره الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - وهو يذكر الحكمة في تأخير الإجابة:

(رأيت من البلاء أن المؤمن يدعو فلا يُجاب، فيُكرر الدعاء، وتطول المدة، ولا يرى أثرًا للإجابة. فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر، وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب. ولقد عرض لي من هذا الجنس. فإنه نزلت بي نازلة، فدعوت وبالغت، فلم أر الإجابة، فأخذ إبليس يجول في حلبات كيده. فتارة يقول: الكرم واسع والبخل معدوم، فما فائدة تأخير الجواب؟

فقلت له: إخسأ يا لعين. فما أحتاج إلى تقاضٍ، ولا أرضاك وكيلًا.

ثم عدت إلى نفسي فقلت: إياك ومساكنة وسوسته، فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدّر في محاربة العدو، لكفي في الحكمة.

قالت: فسلني عن تأخير الإجابة في مثل هذه النازلة.

فقلت: قد ثبت بالبرهان أن الله - عز وجل - مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء، فلا وجه الاعتراض عليه.

والثاني: أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة، فربما رأيت الشيء مصلحة والحكمة لا تقتضيه، وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب، من أشياء تؤذي في الظاهر يقصد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك.

والثالث: أنه قد يكون التأخير مصلحة، والاستعجال مضرة، وقد قال النبي - ﷺ -: (لا يزال العبد في خير ما لم يعْجل، قالوا: يا نبي الله، وكيف يعْجل؟ قال: يقول دعوت فلم يُستجب لي) (1)

الرابع: أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك، فربما يكون في مأكولك شبهة، أو قلبك وقت الدعاء في غفلة، أو تزاد عقوبتك في منع حاجتك لذنب ما صدقت في التوبة منه.

والخامس: أنه ينبغي أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب، فربما كان في حصوله زيادة إثم، أو تأخير عن مرتبة خير، فكان المنع أصلح.

والسادس: أنه ربما كان فقد ما فقدته سببًا للوقوف على الباب واللجإ، وحصوله سببًا للاشتغال به عن المسؤول.

فالحق - عز وجل - علم من الخلق اشتغالهم عنه، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه، يستغيثون به، فهذا من النعم في طي البلاء، وإنما البلاء المحض، ما يشغلك عنه، فأما ما يقيمك بين يديه؛ ففيه جمالك.

وإذا تدبرت هذه الأشياء، تشاغلت بما هو أنفع لك، من حصول ما فاتك من رفع خلل، أو اعتذار من زلل، أو وقوف على الباب إلى رب الأرباب) (2)

---

(1) (رواه أحمد(3/ 193و210)، وأبو يعلى(2867)، والطبراني في الأوسط)

(2) أعذب الخواطر مختصر صيد الخاطر ص 34 - 35 بتصرف - محمد بن صالح فرحان

من ثمرات الابتلاء:

في محراب الدعاء يقف العبد منكسرًا ذليلًا فقيرًا عاجزًا، ينثر الدموع ويسكب الخشوع.. يعبر عن ضعفه وقلة حيلته أمام خالقه وهو يناجيه ويدعوه، فيزيده هذا الضعف والانكسار قوة وثباتًا في مواجهة التحديات والأزمات.. وهل في أحوال الإنسان وتقلباته ما هو أمتع من ساعة مثوله بين يدي الله متبتلًا متذللًا يجأر إليه بشكوى عجزه وضعفه، ويسترحمه؛ لسوء فقره وحالته؟!

وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

(إذا جرى على العبد مقدور يكرهه؛ فله فيه ستّة مشاهد:

الأوّل: مشهد التوحيد، وأن الله– تعالى – هو الذي قدّره وشاءه وخلقه، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: مشهد العدل، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

الثالث: مشهد الرحمة، وأن رحمته في هذا المقدور غالبة لغضبه وانتقامه، ورحمته حشوه (أي ظاهره بلاء وباطنه رحمة).

الرابع: مشهد الحكمة، وأن حكمته سبحانه اقتضت ذلك، لم يقدّره سدى ولا قضاه عبثًا.

الخامس: مشهد الحمد، وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه.

السادس: مشهد العبوديّة، وأنه عبد محض من كل وجه تجري عليه أحكام سيّده، وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده، فيصرفه تحت أحكامه القدريّة كما يصرفه تحت أحكامه الدينيّة، فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه)[1]

(الإمام ابن القيم - رحمه الله -)

---

(1) فوائد الفوائد ص 407

الخيرة فيما اختاره الله:

إن مقياس الخير والشر في حياة الإنسان، لا يتمثل فيما قد تهواه نفسه وتتجه إليه رغائبه، فكثيرًا ما تتجه رغائب الإنسان إلى ما فيه ضرره وهلاكه دون أن يعلم، وإنما مقياس ذلك كامن في علم الله - عز وجل - ولطفه؛ فكثيًرا ما يتعلق المرء بظواهر الأسباب، ويرى فيها مصدر استبشاره أو تخوفه، فيُسَرّ إن ابتلي بالنعم ظنًّا منه بأنها مصدر سعادته، ويضيق ذرعًا إن ابتلي بخلاف ذلك، ظنًّا منه بأن ذلك مصدر شقائه وسوء حاله، غافلًا عن أن تحقق ظواهر الرغبات والآمال، لا تعني أنها تحمل معها عوامل الخير والسعادة الذي يبتغيه، بل ربما تجر معها إليه موجبات المصائب والنكبات، وأن عدم تحقق تلك الرغبات والآمال، لا يعني أنها تحمل إليه معها الشدة والبلاء، بل ربما كان ذلك هو السبيل إلى مبتغياته ورغباته الحقيقية.. فالعبرة ببواطن الأمور ونتائجها، لا بمظاهرها وأشكالها، والأمور دائمًا بخواتيمها المحجبة وراء الغيب والكائنة فى علم اللّه والمحكومة بقضائه وقدره، فالله قد يخلق من الشرور التي تراها ويراها الناس أسبابًا للخير، وقد يخلق من الخير الذي تراه، ويراه الناس جميعًا أسبابًا للشر.. وهذه الحقيقة الهامة قررها الله - عز وجل - في كتابه، فقال: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ ﴾ (البقرة:216)

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ عزاء للنفوس المكروبة ومواساة لها فى حمل هذا المكروه، وإساغة ما فيه من مرارة وألم.. (إنه من يدري، فلعل وراء المكروه خيرٌ، ووراء المحبوب شرٌّ.. فقد تكون الحسرة كامنة وراء المتعة! وقد يكون المكروه مختبئًا خلف المحبوب. وقد يكون الهلاك متربصًا وراء المطمع البراق. إن العليم بالغايات البعيدة، المطلع على العواقب المستورة، هو الذي يعلم وحده؛ حيث لا يعلم الناس شيئًا من الحقيقة.. فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله، وأن الخير في طاعة الله دون محاولة منها أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان!) [1]

إننا جميعًا لو عدنا بالذاكرة إلى أحداث جرت على غير ما كنا نريد في ماضي حياتنا، وما أعقبها من نتائج؛ لأذهلنا عظيم رحمة الله سبحانه وواسع فضله وجزيل إحسانه.

فلو كشف الله الغطاء لعبده، وأظهر له كيف يدبّر الله له أموره، وكيف أن الله أكثر حرصًا على مصلحة العبد من العبد نفسه، وأنه أرحم به من أمّه؛ لذاب قلب العبد محبةً لله، ولتقطع قلبه شكرًا لله.

فيا لسعادة القلوب المكلومة، ويا لسكينة النفوس المكروبة عندما توقن أن وراء ما تكره أو تحب علمٌ رباني واسع يتجاوز حدود نظرتها الضيقة وعلمها المحدود للأحداث، وحكمة عظيمة ترتب الأمور بدقة عجيبة لا يتخيلها العقل القاصر!

---

(1) في ظلال القرآن ج1 / 223 - 224 بتصرف

وأفوض أمري إلى الله:

عندما يعلم المؤمن أن كل ما يقضيه الله – عز وجل – هو عين الحكمة والرحمة والخير سواء في العاجل أو الآجل؛ فإن هذه المعرفة تضفي على القلب شعورًا بالأنس والسعادة والطمأنينة والسكينة، مهما اشتدت المصائب، وتوالت المحن؛ فهو في رعاية إله حكيم، واسع العلم والاطلاع على مبادئ الأمور وعواقبها، تام القدرة، غزير الرحمة، يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فكيف يفترسه القلق، وتداهمه الحيرة وتستبد به الوساوس والظنون، وتشتعل في قلبه نيران الحسرة؛ وهو يبصر رعاية الملك – سبحانه – وعنايته به في كل الأحوال؟!

ولم لا يسلم نفسه إليه ويفوض أمره إليه، ويلجئ ظهره إليه، ويعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه؟

و(التفويض هو روح التوكل ولبُّه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه) (1)

(1) المهذب من مدارج السالكين ص 210

واعجباه.. يدعي قلبك أنه متوكل على الله، ثم لا يرضى باختياراته!

أما علمت أن التوكل تفويض وثقة واطمئنان واستسلام!

أما مررت من قبل بمحنة عصيبة لم تجد – في وقتها – أي بادرة خير أو شعلة أمل، وظننت ساعتها أنها شرٌّ محضٌ، وأنها ستكون سببًا في تحطيمك وانهيارك، ثم تبين لك بعد وقت – طال أو قصر – أنها تحمل في طياتها خيرًا كثيرًا ولطفًا عظيمًا؟!

قصة موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح:

كثير من الناس ينظر إلى البلايا والمصائب من منظار ضيّق محدود، يقتصر فيه على رؤية مشهد واحد فقط من فصول المحنة؛ لأن نظرته قاصرة تتركز على اللحظة الحاضرة فقط، غافلًا عن أن هناك حكمة وراء الأحداث يترتب عليها نتائج لا تدخل في الحسبان ولا يتخيلها الفرد ذو العمر القصير والعقل القاصر.

ولعل في قصة موسى – عليه السلام – مع العبد الصالح – في سورة الكهف (الآيات 60 – 82) – ما يكشف اللثام عن الحكم العظيمة التي كانت تختفي وراء هذه المواقف الثلاثة: (خرق السفينة– قتل الغلام– بناء الجدار) التي يبدو في ظاهرها الشر المحض، ولكنها تحمل في طياتها الرحمة والخير، فخرق السفينة رحمة من الله لأصحابها المساكين؛ لأنها بهذا الخرق سلمت من مصادرة الملك الظالم، ولو لم تخرق لصودرت. وقتل الغلام رحمة من الله لوالديه؛

حيث سيعوضهما خيرًا منه ولو لم يقُتل لأرهقهما طغيانًا وكفرًا. وبناء الجدار رحمة من الله؛ لأنه به يحفظ كنز الغلامين اليتمين في المدينة، ولو لم يُبن الجدار؛ لانكشف الكنز وسلبه البخلاء في القرية.

فكثيرًا ما تكون الصورة عطاء، والمضمون منعًا وابتلاء، وكثيرًا ما تكون الصورة منعًا والمضمون عطاءً وتكريمًا. والعاقل هو الذي لا يجعل من نفسه أسيرًا للشكل تائهًا عن المضمون، ولكن (أكثر الناس غافلون عن مجريات القدر الإلهي ينظرون إلى سطوح الأحداث.. تغرهم، تسرهم، تزعجهم، ترضيهم، تغضبهم.. لكن كم منهم من يخترق السطح إلى الأعماق، ويتجاوز القشور إلى اللباب!. كم من الناس ينظر إلى الأحداث بعين الخضر لا بعين موسى – عليهما السلام– !!) [1]

ويعجبني ما قاله د. مصطفى السباعي – رحمه الله –:

(يتساءلون عن حكمتك في المرض والجوع، والزلزال والكوارث، وموت الأحباء وحياة الأعداء، وضعف المصلحين وتسلط الظالمين، وانتشار الفساد وكثرة المجرمين. يتساءلون عن حكمتك فيها؛ وأنت الرؤوف الرحيم بعبادك؟ فيا عجبًا لقصر النظر ومتاهة الرأي! إنهم إذا وثقوا بحكمة إنسان سلموا إليه أمورهم، واستحسنوا أفعاله وهم يعرفون حكمتها. وأنت الحكيم العليم.. الرحمن الرحيم.. اللطيف الخبير.. يفقدون حكمتك فيما ساءهم وضرهم، وقد آمنوا بحكمتك

(1) لمسات قدرية في سورة يوسف ص15 بتصرف – د. مأمون جرار

فيما نفعهم وسرّهم.. أفلا قاسوا ما غاب عنهم على ما حضر؟ وما جهلوا ما علموا؟أم أن الإنسان كان ظلومًا جهولًا؟! [1]

تجري الأمورُ على وَفْقِ القضاءِ وفي ... طَيِّ الحوادثِ محبوبٌ ومكروهُ
فربما سرني ما بِتُّ أحذَرُهْ ... وربما ساءني ما بِتُّ أرجوهُ

من ثمرات الابتلاء:

عند فوات ما أحب وأشتهي أو تأخر ما أرجو وأتمنى؛ أسارع إلى ارتداء نظارتي الإيمانية التي تسمو بي عن الاستغراق في أسر اللحظة الحاضرة، وتفتح لي آفاقًا أوسع؛ لتلمس رحمة الله- تعالى - ولطفه وحكمته، مما يحول بيني وبين عواصف الهم والغم والحزن، وينحي عني أشباح الهواجس النفسية والوساوس الشيطانية.

(1) هكذا علمتني الحياة ص 45 – 46 بتصرف

وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ

(أروع ما في الرضا أنه يدفع سفينة القلب المكدود بتأثير قسوة الظروف وشدة الأزمات إلى شاطئ السكينة والطمأنينة غير عابئ بأمواج المحن وأعاصير الفتن.

ولله در القائل: (لو جُعلت لي دعوة مستجابة، ما سألت الفردوس؛ وإنما أسأل الرضا، فهو تعجيل الفردوس فى الدنيا)[1]

---

(1) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء

الرضا جنة الدنيا:

إن الإنسان في هذه الحياة الدنيا عرضة دائمًا لأن تصيبه النوائب والمصائب، سواء بموت عزيز عنده، أو بمرض مزمن، أو ألم مبرح، أو فقر مدقع، أو غير ذلك من المتاعب والآلام. ومن شأن المصائب أن تهز النفوس وتزلزلها، وما من إنسان لا يتأثر بما يصيبه ولو كان صلدَ المشاعر عديم الاكتراث، ولكن التأثر بالأحداث شيء، والوهن والجزع عند حلولها شيء آخر.

لذا جاء قول الله - تعالى -: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن:11)؛ بلسمًا شافيًا ودواءً ناجعًا يتناوله العبد في لحظات الشدائد والكربات، فيحفظه من آفات الجزع والسخط، ويعصمه من اليأس والقنوط عبر ما تغرسه في القلوب من الرضا والاستسلام لله - عز وجل - دون منازعة أو اعتراض!

وتأمل معي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[1]:

(1) عن عَلْقَمَةَ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قال: هُيَ الْمُصِيبَةُ تُصِيبُ الرَّجُل، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيُسَلِّمُ لها ويَرْضَى (رسائل ابن أبي الدنيا في الزهد والرقائق والورع ج1 / 166)

يهدي قلبه (ليقين) راسخ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيحارب بهذا اليقين وساوس الشيطان، ونزغات النفس الأمارة بالسوء.

يهدي قلبه (لزهد) يسمو به عن السقوط في مستنقع الهلع والحرمان عند فوات شهوات الدنيا وملذاتها.

ويهدي قلبه (لصبر) يعينه على تحمل صدمات الحياة ومصائبها طمعًا فيما عند الله من الأجر والثواب.

ويهدي قلبه (لشكر) يمنحه رؤية تربية الله له في المصائب، ونجاة له من براثن الغفلة.

ويهدي قلبه (لمحبة) تحول الطعم المر للمصائب إلى مذاق العسل المصفى.

ويهدي قلبه (لجنة دنيوية) لا يتصور تحققها إلا عبر بوابة الرضا والتسليم.

وماذا بقي في القلب من شوائب وأكدار بعد هذه الهداية العظيمة؟!

وهل يملك الشيطان التسلط على هذا القلب وإغرائه بالجزع والشك والسخط؟!

فما هو الرضا؟

ذكر الإمام القشيري في (الرسالة القشيرية) عدة تعريفات للرضا نقلها عن كبار الأئمة والتابعين، أذكر منها:

(قال أبو عمر الدمشقي: الرِّضا: ارتفاع الجزع في أيِّ حكم كان.

وقال ابن عطاء: الرضا: نظر القلب إلى قديم اختيار الله– تعالى – للعبد، وهو ترك التسخط.

وقال المحاسبي: الرضا: سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وقال النووي: الرضا: سرور القلب بُمرِّ القضاء.

وسئلت رابعة العدوية: متى يكون العبد راضيًا؟ فقالت: إذا سرته المصيبة كما سرَّته النعمة) [1]

وخلاصة القول: الرضا هو تقبل اختيار الله للعبد والموافقة عليه، وبكل ما ينزل بالعبد من شدة أو رخاء، عافية أو بلاء، منع أو عطاء، فهو لا يحزن على مفقود ولا يفرح بموجود، مصداقًا لقوله – عز وجل –: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ **(الحديد:22)**.

وهذا يجعل العبد لا يرى في المنع أو البلاء أو المصائب أو الأمراض شرًّا يتطير به ويجزع منه، بل هو صقل وتطهير وتنقية واختبار.

دع الأيـام تفعل ما تشاء — وطب نفسًا إذا حكم القضاء

ولا تجـزع لحادثة الليالي — فما لحـوادث الدنيا بقاء

---

(1) المقامات الإيمانية تهذيب الرسالة القشيرية ص 109 – 110 – محمد بن صالح فرحان

الرضا وسكينة النفس:

يرتبط الرضا ارتباطًا وثيقًا بالسكون والهدوء، فهو يمنح العبد السكينة والطمأنينة تحت ضربات القدر والأحكام، مهما بلغت شدتها في معترك الحياة، فالرضا (يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مُهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حسن تدبيره، وكمال حكمته. ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقضيته)[1]، كما أنه يهب المرء الاستقرار النفسي، فهو أحد المنجيات من دوامات الصراع النفسي التي يسقط فيها عامة الناس تحت ضغوط العديد من الآفات والأمراض النفسية كالقلق والطمع والحسد والحقد، والضيق والقنوط والشك والسخط.

وما أروع كلمات عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - والتي تنضح بأريج الرضا والتسليم:

(مَا أُبَالِي عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحْتُ، عَلَى مَا أُحِبُّ أَوْ عَلَى مَا أَكْرَهُ، وَذَلِكَ لأَنِّي لا أَدْرِي الْخَيْرَ فِيمَا أُحِبُّ أَوْ فِيمَا أَكْرَهُ) [2].

---

(1) المهذب من مدارج السالكين ص 231 - 232

(2) رسائل ابن أبي الدنيا في الزهد والرقائق والورع ج2 / 272

يا لها من منزلة سامقة لا يصل إليها إلا القلوب التي طرحت همومها في حصن التوكل والثقة والتفويض، فاستوى عندها المنع والعطاء، ففي كليهما رسائل؛ لتدبر لطف الله– تعالى – ورحمته وحكمته.

وتتحقق السكينة في الرضا من خلال أمرين:

1- التحرر من ضغط الشهوات والمطامع:

فالرضا يحرر النفوس ويخلصها (من شتى القيود والضغوط النفسية والشهوات، وكل ما من شأنه أن يجعل العبد عبدًا للدنيا أو للغير أو للنفس، فقد يكون العبد أسيرًا لما يفقده فيأسى عليه، أو يكون تواقًا إلى ما يُعطاه فيفرح به. وفي رأيي، أن العبد في الحالتين أسير!، فهو في هذه أسير الغم والندم والخوف، وفي تلك أسير الهم والحلم والانتظار. وهذه الضغوط والشهوات تشكل خطرًا على باطن الإنسان وظاهره، فتُفقده اتزانه وسكونه، توازنه وثباته، استقامته واعتداله. فإن مال: أُسر بها وتعلق، فتسلبه لُبّه وقلبه وحريته، تُقيده فتملكه، فلا يملك منها فكاكًا، فيصبح في قلق دائم وخوف متزايد) [1].

فما أبعد القلوب المتعلقة بالشهوات عن تذوق حلاوة الرضا، وأنى لها ذلك وهي لا ترى الفرح إلا في أوقات العافية والعطاء، ولا ترى التعاسة والشقاء إلا عند فوات المشتهيات والحرمان من المحبوبات!

---

(1) مقام الرضا عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين ص 199 – محمد مختار مصلح

2- التحرر من الأفكار السلبية:

الرضا يحرر النفس من الأفكار السلبية التي تتكاثر في لحظات الضعف؛ لتغري المرء بمزيد من التشاؤم والإحباط، ذلك أن الرضا يمنح المرء القدرة على التفكير الإيجابي الهادئ المتزن في كل المواقف والأحداث، فهو يجد دائمًا زاوية مضيئة في كل شيء، وجانبًا مريحًا في كل أمر، فيجد عطاءً مع كل منع، ولذة مع كل مرار، ويسرًا مع كل عسر، فهو يرى دائمًا النصف الممتلئ من الكوب، لذا فهو يحتفظ بتفاؤله مهما اسودت الدنيا أمام ناظريه؛ فهو دائمًا يحدث نفسه: (يا نفس) ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:51)، وهو حسبنا ونعم الوكيل؛ إذ هو قادر لا نهاية لقدرته، حكيم لا نهاية لحكمته، رحيم لا نهاية لرحمته. ومن كان بهذه الصفة، لحقيق أن تتكل عليه، وتفوض الأمر كله إليه، وكذلك توطن قلبك على ما يقضي الله لك؛ فهو الأوفق والأصلح، وأن ذلك لا يبلغ علمنا كيفيته وسره، وتقول: يا نفس، المقدور كائن لا محالة، فلا فائدة في السخط، والخَيْر فيما يصنع الله - عز وجل -، فلا وجه للسخط، ألست تقولين: رضيت بالله ربًّا، فكيف لا ترضين بقضائه!، والقضاء من شأن الربوبية وحقها؛ فعليك بالرضا).[1]

ولسائل أن يسأل: هل الرضا يتناقض مع الاحساس بالألم، ويشترط لتوافره عدم التألم أو الكراهة؟

والإجابة عند د. البوطي - رحمه الله -:

(إن الإنسان مهما وثق بأن كل ما يفد إليه من عند الله متفق مع الحكمة،

(1) منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ص243 - أبو حامد الغزالي

يحمل إليه عاقبة الخير والرشد، ومهما تفاعل شعوره ويقينه بأن كل ما يأتي من المحبوب محبوب، فإن الجسد لابد أن يظل خاضعًا لقوانينه، يتألم مما يؤلم، ويلتذ بما هو ممتع، كذلكم النفس تضيق بالكرب وأسبابه، وتنتعش بالمبهجات وأسبابها. إذًا، فلا مطمع لغياب الألم عن الجسد، مما اقتضت سنة الله أن يتألم منه، مهما تحقق الرضا عن الله به، ومهما توافرت الثقة في النفس بحكمة الله ورحمته في كل ما يقضي به، ولكن لكل ذلك دورٌ كبيرٌ في تخفيف الآلام، إذ ثمّة فرق كبير بين حال من يعاني من ألم لا يعلم له مصدرًا ولا سببًا، وحال من يعاني من ألم يعلم أنه نتيجة عمل جراحي عاقبته العافية والشفاء، بل إنك لترى هذا الثاني، يتأوه من ألمه، ويشكر في الوقت ذاته طبيبه الذي تسبب له بذلك الألم). [1]

وهذا ما يؤكده أبو علي الدقاق: (ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما الرضا: أن لا تعترض على الحكم والقضاء). [2]

الطريق إلى الرضا:

وأحسب أن بلوغ شاطئ الرضا، يحتاج إلى أمرين:

أولًا: معرفة قوية راسخة بالله- تعالى - تقود القلب إلى حسن الظن به، وهذه المعرفة تتم من خلال ثلاثة محاور:

1. معرفة الله، بأسمائه وصفاته، في الخلق والملك، والقدرة والعطاء والمنع، والضر والنفع. فالمؤمن الذي اغترف قلبه من

(1) شرح الحكم العطائية ج 2 / 520 – 521

(2) المقامات الإيمانية تهذيب الرسالة القشيرية ص 107

معين أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، تقوده هذه المعرفة إلى الرضا عن كل ما يقع له من أمور، لعلمه بأن الله- تعالى - لا يقضي قضاءً إلا وفيه تمام العدل والرحمة والحكمة، فلا يتهم ربه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره، وذلك يوجب له استواء الحالات عنده، ورِضاه بما يختاره له سيده.

ولله در ابن عون - رحمه الله - عندما قال: (اعْلَمْ أَنَّ الْعَبْدَ لَنْ يُصِيبَ حَقِيقَةَ الرِّضَا حَتَّى يَكُونَ رِضَاهُ عِنْدَ الْفَقْرِ كَرِضَاهُ عِنْدَ الْغِنَى وَالْرخاء، كَيْفَ تَسْتَقْضِي اللَّهَ (تطلب قضائه وحكمه) فِي أَمْرِكَ ثُمَّ تَسْخَطُ إِنْ رَأَيْتَ قَضَاءَهُ مُخَالِفًا لِهَوَاكَ، وَلَعَلَّ مَا هَوَيْتَ مِنْ ذَلِكَ لَوْ وُفِّقَ لَكَ لَكَانَ فِيهِ هَلَكَتُكَ.. وَتَرْضَى قَضَاءَهُ إِذَا وَافَقَ هَوَاكَ وَذَلِكَ لِقِلَّةِ عِلْمِكَ بِالْغَيْبِ وَكَيْفَ تَسْتَقْضِيهِ إِنْ كُنْتَ كَذَلِكَ، مَا أَنْصَفْتَ مِنْ نَفْسِكِ، وَلَا أَصَبْتَ بَابَ الرِّضَا) [1]

2. معرفة أن التدبير الإلهي هو خير تدبير على الاطلاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب:34)، وأن كل شيء خاضع لاختياره ولمشيئته وحكمته.

وما أجمل ما قاله الإمام ابن القيم - رحمه الله -:

(من ترك الاختيار والتدبير في رجاء زيادة أو خوف أو نقصان أو طلب صحة أو فرار من سقم، وعلم أن الله - تعالى - على كل شيء قدير، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وأنه

(1) رسائل ابن أبي الدنيا في الزهد والرقائق والورع ج1 / 184

أعلم بمصلحته من العبد، وأقدر على جلبها وتحصيلها منه، وأنصح للعبد منه لنفسه، وأرحم به منه لنفسه، وأبر به منه بنفسه، وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة واحدة، ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة؛ فألقى نفسه بين يديه، وسلم الأمر كله إليه، وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك ضعيف بين يدي ملك عزيز قوي قاهر، له التصرف في عبده بكل ما يشاء، وليس للعبد التصرف بوجه من الوجوه)[1].

3. معرفة بالعدالة الإلهية ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ (فصلت: 46)، فبقدر معرفة العبد بعدل مولاه، وبأنه أحكم الحاكمين؛ بقدر ما يستقبل حكمه النافذ في هدوء، ويرضى بقضائه العالي في سكون.

ثانيًا: معرفة قيمة الحياة الدنيا، وعدم الاغترار بها:

إن العبد عندما يدرك القيمة الحقيقية للدنيا، وأنها مجرد لعب ولهو، لا قيمة لها ولا وزن إلا بقدر ما تعينه وتقربه من الله- تعالى - وتبلغه رضاه؛ تتضاءل قيمتها في حسه حتى يتساوى فيها كل شيء، سواء بسواء، ما يفوته منها أو يصيبه، ما يُعطاه منها أو يمنع عنه، فلا يحزن على هذا أو يفرح بذاك. (فمن البديهي أنه كلما احتلت الدنيا قيمةً ومقدارًا لدى الإنسان، خاصةً قلبه لا يده أو عقله، وكانت تهمه وتشغله، فإنه لا يستوي لديه المنع والعطاء أو فقدها ووجودها، إقبالها أو إدبارها، فيحزن على ما يفوته، ويفرح بما يأتيه، فيكون دائمًا في سخط أو تمنّ وقنوط أو انتظار، ومن ثم يصاحبه الأسى والحزن والقلق. أما إذا أصبح لا يبالي بما فيها أو

---

(1) فوائد الفوائد ص74

بمن فيها، وتساوت لديه الأمور من منع وعطاء وغيره، فإن هذا التساوي وهذه اللامبالاة بها تُدخله إلى الرضا)[1].

من ثمرات الابتلاء:

في حصن الرضا يعيش المؤمن في حماية وأمان من هجمات القلق المفترسة أو غزو الهموم الموجعة؛ لأنه ركن إلى حمى القيوم - عز وجل -، ووثق في تدبيره وحكمته، وأيقن بلطفه ورعايته.. وهل يطفىء نيران حسرات النفوس على فوات منفعة حاضرة أو مصلحة عاجلة إلا الرضا عن الله– تعالى - وحسن الظن به واليقين بقضائه!

(1) مقام الرضا عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين ص 180

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ

(القدر لا يجري حسب تدبيرك، بل أكثر ما يكون ما لا تدبير لـك فيـه، وأقل مـا يكون مـا أنت له مدبـر، والعاقـل لا يبني على غيـر قـرار ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق:3). ربمـا دبـرت أمـرًا ظننـت أنه لك، فكان عليك.. ربما كَمُنَت المنن في المحن، والمحن في المنن.. علمك بأنك ملك لله، وليس لك تدبير مـا هو لغيـرك، فما ليس لك ملكه ليس لـك تدبيره.. علمك بأنـك فـي ضيافة اللـه؛ لأن الدنيـا دار الله، وأنت نـازل فيها عليه، ومن حق الضيف ألا يعول همًّا مع رب المنزل)[1]

---

(1) التنوير في إسقاط التدبير بتصرف - ابن عطاء الله السكندري

وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ:

إن الله– سبحانه – مالك الملك، يتصرف فيه بمقتضى حكمته ومشيئته، وكل تصرف منه إنما يجري وفق مشيئته التي وضعها في الكون، وقوانينه المضطردة في الوجود، فهو سبحانه بيده الأمور كلها خيرها وشرها، يعطي ويمنع، ويعز ويذل، وينفع ويضر، لأنه القادر على كل شيء، يتصرف في ملكه كيفما شاء بمقتضى الحكمة والرحمة، فما من ذرة في السماء أو في الأرض إلا وهي في علم اللّه، وفي تصريف قدرته، وإلا هي آخذة مكانها في هذا الوجود، كما يأخذ كل عضو في الجسد مكانه منه.

قال الله – عز وجل –: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49)

(كل شيء.. كل صغير وكل كبير.. كل ناطق وكل صامت.. كل متحرك وكل ساكن.. كل ماض وكل حاضر.. كل معلوم وكل مجهول. كل شيء خلقناه بقدر. قدر يحدد حقيقته.. ويحدد صفته.. ويحدد مقداره.. ويحدد زمانه.. ويحدد مكانه.. ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء.. وتأثيره في كيان هذا الوجود.

إن حركة هذا الكون كله بأحداثها ووقائعها وتياراتها مقدرة مدبرة صغيرها وكبيرها. كل حركة في التاريخ ككل انفعال في نفس فرد، ككل نفس يخرج من صدر!

إن هذا النفس مقدر في وقته، مقدر في مكانه، مقدر في ظروفه كلها، مرتبط بنظام الوجود وحركة الكون، محسوب حسابه في التناسق الكوني، كالأحداث العظام الضخام! تقدير في الزمان، وتقدير في المكان، وتقدير في المقدار، وتقدير في الصورة. وتناسق مطلق بين جميع الملابسات والأحوال) [1]، فلا شيء في الوجود يحدث مصادفة، ولا شيء يحدث جزافًا بلا حساب، ولا شيء يحدث بلا غاية.

إن (القدر في حس الإنسان حقيقة هائلة، رهيبة مخوفة، مرتقبة ومتقاة! ذلك أنها تتصل بالقوة التي تدبر الكون وتصرف الحياة.. القوة التي تمنح وتمنع، وتسعد وتشقي، وتفْرِح وتحزِنْ، وتأخذ وتعطي، وتعذِّب وترضِي، وتحرِم وتغدق، وتهب الحياة وتأخذ الحياة! وتتصل في الوقت ذاته بالمجهول.. بالغيب المحجوب عن الأبصار.. وتتلفع بالكتمان لا تفصح عن سرها قبل أن تقع، وقد تقع وهي مع ذلك مغلفة بالأسرار! شيء هائل رهيب.. لا جرم يشعر الإنسان إزاءه بالضآلة والانحسار!) [2].

حقيقة القضاء والقدر:

القضاء: هو علم الله الأزلي بكل ما سيجري في الكون في المستقبل من الحوادث الطبيعية، والتصرفات البشرية سواء القسرية منها (من ولادة وموت وأمراض وعاهات ومصائب)، والاختيارية (التي تصدر بكسب الإنسان وإرادته كالأنشطة التجارية والزراعية والاجتماعية على اختلافها، والطاعات والقربات الدينية من صلاة وصيام وحج ونحو ذلك).

(1) في ظلال القرآن ج6/ 3436
(2) منهج الفن الإسلامي ص97 - محمد قطب

والقدر وقوع الأشياء وجريانها، طبقًا لعلم الله الأزلي بها، إذًا فالقضاء هو علم الله بكل ما سيجري مستقبلًا، والقدر هو المرحلة التنفيذية لذلك المعلوم الذي كان مخبوءًا في غيبه - عز وجل.

وعلم الله - سبحانه - بما سيقع، ووقوعه حسب هذا العلم لا تأثير له فى إرادة العبد، فإن العلم صفة كاشفة وليست صفة مؤثرة (أي أنها أشبه ما تكون بالمصباح إذا يكشف كل شيء أمامه على ما هو عليه، دون أن يحدث أي تغيير أو تأثير فيه). فمثلًا، علم الإنسان بأن ابنه ذكي مقبل على دروسه، ومستوعب لها حفظًا وفهمًا، ليس له تأثير في نجاحه.

قال الخطابي: (قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله - سبحانه - العبد على ما قدره وقضاه!. وليس الأمر كما يتوهمون؛ وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله - سبحانه - بما يكون من اكتساب العبد، وصدورها عن تقدير منه) [1].

من أسرار القدر وحكمته:

قال الله - عز وجل -:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (**الحديد** 22 - 23)

(1) شرح النووي على صحيح مسلم ج1/ 154

(إن هذه العقيدة إذا رسختْ في نفسك وقرَّت في ضميرِك صارتْ البليةُ عطيةً، والمِحْنةُ مِنْحةً، وكلُّ الوقائع جوائز وأوسمةً، (ومن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُصِبْ منه)، فلا يصيبُك قلقٌ من مرضٍ أو موتِ قريبٍ، أو خسارةٍ ماليةٍ، أو احتراقِ بيتٍ؛ فإنَّ الباري قد قدَّر والقضاءُ قد حلَّ، والاختيارُ هكذا، والخيرةُ للهِ، والأجرُ حصل، والذنبُ كُفِّر. هنيئًا لأهلِ المصائب صبرهم ورضاهم عن الآخذِ، المعطي، القابضِ، الباسط، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾. ولن تهدأ أعصابُك وتسكن بلابلُ نفسِك، وتذْهب وساوسُ صدْرِك؛ حتى تؤمن بالقضاءِ والقدرِ، جفَّ القلمُ بما أنت لاقٍ فلا تذهبْ نفسُك حسراتٍ. لا تظنُّ أنه كان بوسعِك إيقافُ الجدار أن ينهار، وحبْسُ الماءِ أنْ ينْسكِب، ومَنْعُ الريحِ أن تهبّ، وحفظُ الزجاج أن ينكسر، هذا ليس بصحيح على رغمي ورغمك، وسوف يقعُ المقدورُ، وينْفُذُ القضاءُ، ويحِلُّ المكتوبُ) [1].

على أننا في حياتنا الدنيا قد نواجه الكثير من الأقدار، التي تبدو مؤلمة وقاسية في ظاهرها ولا نملك لها أي تفسير ولا نلمح فيها أي حكمة، ونتساءل: (لماذا اختطف الموت تلك الطفلة البريئة التي ليس لها «ذنب"، والتي كانت وحيدة أبويها، المتعلقين بها، تتمثل فيها بالنسبة إليهما كلُّ معاني الحياة!؟

ولماذا اختطف الموت ذلك الرجل وهو العائل الوحيد لأسرته، لا موئل لهم غيره، وهم عديد من زوجة وأطفال وأقرباء!؟، لماذا انتصر الشر على الخير، فيئس الناس من مصير الخير على الأرض،

(1) لا تحزن ص46 – د.عائض القرني

وتهاوت نفوسهم، واندفعوا في طريق هابط، لا يعملون لنصرة الحق ولا يتورعون عن ارتكاب الآثام!؟

لماذا رزق هذا الرجل الصالح بولد مجرم يعيث فسادًا في الأرض، ويهلك الحرث والنسل؟

لماذا غرقت هذه السفينة واحترقت هذه الطائرة، ووقع ذلك الزلزال المدمر العنيف؟

لماذا عاش هذا الطفل وقد مات أبواه في الحادثة، وليس له من يرعاه؟

لماذا يظل هذا الشيخ حيًّا، وقد هدَّه المرض والعجز والشيخوخة، ويموت ذلك الشاب الصاعد نحو القمة الممتلئ بالحياة؟

وألوف من الأسئلة وألوف من التعجبات.. لا يدرك البشر كُنهَهَا؛ فتتمثل لهم قسوة القدر في تصريف الأمور، أو يتمثل لهم كأنه يخبط خبط عشواء.. إن القدر الذي يصرف حياة الناس هو إرادة الله وهو الحق، وهو لا يجري بالظلم، فالظلم محال على الله. وهو لا ينهي الأمور في هذه الأرض؛ لأن الأرض ليست نهاية الحياة، واقتطاعها وحدها من الصورة يفسد ما فيها من الحق، ويخلّ بالنسب والموازين. والبشر لا يدركون حقيقة الصورة؛ لأنهم يقطعون رباطاتها، وينظرون إليها أجزاء وتفاريق، ينظرون إلى حياة فرد بعينه أو حياة جيل، ويقفون عند الحادث المفرد كأنه المقطع الأخير في الصورة، أو يقفون عند هذه الأرض فلا تتبين لهم الملامح، ويظنونه خبط عشواء. لماذا ماتت

الطفلة، ولماذا عاش الشيخ، ولماذا وقع الزلزال، ولماذا هزم الحق وانتصر الطغيان؟!) [1]

وقد عرض الله – تعالى – علينا في (قصة يوسف) – عليه السلام – طرفًا من لمسات القدر الإلهي التي تتجاوز حدود الزمان والمكان؛ ليعلمنا أن كل شيء بقدر؛ لنسلم الأمر لصاحب الأمر، وتطمئن قلوبنا وتستريح، وتسير مع قدر الله في توافق وفي تناسق، وفي أنس بصحبة القدر في خطوه المطمئن الثابت الوثيق.

(من ذا الذي يذكر – مثلًا – أن زواج يعقوب(عليه السلام) من امرأة أخرى هي أم يوسف وبنيامين أخيه، لم يكن حادثًا شخصيًّا فرديًّا.. إنما كان قدرًا مقدورًا ليحقد إخوة يوسف – من غير أمه – عليه؛ فيأخذوه فيلقوه في الجب – ولا يقتلوه – لتلتقطه السيارة، لتبيعه في مصر. لينشأ في قصر العزيز لتراوده امرأة العزيز عن نفسه، ليستعلي على الإغراء، ليلقى في السجن. لماذا؟ ليتلاقى في السجن مع خادمي الملك. ليفسر لهما الرؤيا..لماذا؟ إلى تلك اللحظة لا يوجد جواب! ويقف ناس من الناس يسألون: لماذا؟ لماذا يا رب يتعذب يوسف؟ لماذا يا رب يتعذب يعقوب؟ لماذا يفقد هذا النبي بصره من الحزن؟ ولماذا يسام يوسف الطيب الزكي كلَّ هذا الألم، المنوع الأشكال؟ لماذا؟. ولأول مرة تجيء أول إجابة بعد أكثر من ربع قرن في العذاب؛ لأن القدر يعده ليتولى أمر مصر وشعبها، والشعوب المجاورة في

(1) منهج الفن الإسلامي ص99 – 105 بتصرف

سنين القحط السبعة! ثم ماذا؟ ثم ليستقدم أبويه وإخوته؛ ليكون من نسلهم شعب بني إسرائيل. ليضطهدهم فرعون؛ لينشأ من بينهم موسى - وما صاحب حياته من تقدير وتدبير - لتنشأ من وراء ذلك كله قضايا وأحداث وتيارات يعيش العالم فيها اليوم بكليته! وتؤثر في مجرى حياة العالم جميعها!) [1]

ولقد ذكر الشيخ علي الطنطاوي - رحمه الله - واقعة رائعة تبين خطأ الناس عندما يقيموا أقدار الله وفق مقاييس العدالة البشرية، فيقول:

(جاء يوم كنت فيه في المدرسة، وكنت أؤدب تلميذًا بالضرب، (وكان الضرب من وسائل التأديب في تلك الأيام)، ففجر الولد وتوقح، وجعل يصرخ، ويقول: "هذا ظلم.. أنت ظالم.."!!.

ثقوا يا أيها القراء، أني لما سمعت ذلك سقطت العصا من يدي، ونسيت الولد والمدرسة، ورأيت كأني كنت في ظُلمة فأضيء لي مصباح منير، فقلت لنفسي: إن التلميذ يرى ضربي إياه ظلمًا، وأنا أراه عدلًا، والعمل واحد، وإذا ذهب يشكو إلى أهله، قالوا له: لا ما هذا ظلم، هذا عدل، إنه يضربك لمصلحتك. فإذا كان التلميذ لا يحق له أن يطبق مقاييسه الناقصة على عدالة المعلم، فكيف أطبق أنا مقاييسي البشرية للعدالة على الله- تعالى -!!.

---

(1) في ظلال القرآن ج6/ 3441

ألا يمكن أن يكون الفعل الذي أراه ظلمًا هو عين العدل؟ الولد المريض يرى الإبرة التي يدخلها الطبيب تحت جلده ظلمًا، وهي في رأي أبيه عدل كل العدل؛ لأن الولد نظر إلى ألمها، والأب أبصر أثرها في شفاء الولد.

إن القاضي لا يستطيع أن يحكم في دعوى حتى يطلع على مراحلها كلها، ووقائعها جميعًا، ونحن إنما نطلع غالبًا على طرف من الواقع، ونصدر أحكامًا خاطئة، بعد دراسات ناقصة.

لو تهت أنت ورفيقك في الصحراء، فمرت سيارة فخمة، دعاكما صاحبها، وأركبكما فيها، فأخرج صديقك سكينه فمزق جلد المقعد، ألا ترى عمله ظلمًا؟ إنه ظلم بلا شك، ولكن إذا علمت أن أمامك عصابة من قطاع الطريق، كلما رأوا سيارة سليمة أخذوها، وإن كانت ممزقة المقعد تركوها، ألا يتحول هذا الفعل في نظرك من ظلم إلى عدل؟

بل إن صاحب السيارة لو عرف هذه الحقيقة؛ لمزق جلد مقعدها بنفسه؛ لأنه يفضل أن تبقى السيارة له، ومقعدها ممزق، عن أن تذهب كلها وهي سليمة؟ أليس هذا صحيحًا؟ هذه هي قصة الخضر وموسى، لما ركبا في السفينة وخرقها، ضربها الله مثلًا، نفهم منه ألّا نسرع إلى إصدار الأحكام قبل الإحاطة بالوقائع) [1]

(1) تعريف عام بدين الإسلام ص 127

الإيمان بالقدر مفتاح السعادة وراحة البال:

من أعظم ثمار الإيمان بالقدر شعور المؤمن به براحة النفس، وسكينة القلب، فقد علم علم اليقين: أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما كتب الله- تعالى - له من عافية لابد أن يدركه، وما قدر له من بلاء لن يفر منه، فلا تعبث به رياح الشك، ولا عواصف القلق. فلا يتحسر على ما فاته ولا يخاف مما ينتظره. وكيف يحزن أو يسخط وهو يوقن أن ما أصابه إنما هو نتيجة لقضاء الله وحكمه الذي لا بدّ أن يلحقه ويقع به أينما ذهب، وبأي حيلة أو سبب تمسك، فهو مطمئن إلى النتائج مهما كانت، ملتزم بوصية رسول الله ﷺ التي يقول فيها: (.. وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)[1].

وبهذه العقيدة ربى النبي - عليه الصلاة والسلام - أصحابه، فقد قال لابن عباس - يومًا: (يا غلام، ألا أُعلِّمُك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك

(1) رواه مسلم 2664

بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعت الأقلام وجَفَّت الصحف)[1]

وهي - أيضًا - وصية عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - لابنه: (يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، فقال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. يا بني، إني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: من مات على غير هذا فليس مني)[2]

يقول محمود الوراق:

ليس عندي إلا الرضا بقضائـ	**ـه فيما أحببتُه أو كرهتُه**
لـوليِّ الأمـور يختار منها	**خيرَها لي عواقبًا ما عرفته**
فأرى أن أردَّ ذاك إلى من	**عـنده العلم الـذي قـد جهلته**

(1) أخرجه الترمذي (2516)، وأحمد (2802)، وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح"
(2) رواه أبو داوود (4700)

من ثمرات الابتلاء:

وهي وصية الشيخ عبد القادر الجيلاني - رحمه الله - إليك:

(أحسن الأدب ولا تتهم مولاك، فكل شيء عنده بمقدار، لا مقدم لما أخّر، ولا مؤخر لما قدّم، يأتيك ما قدّر لك عند وقته وأجله إن شئت أو أبيت، لا تشره (الشره= شدة الحرص) على ما سيكون لك، ولا تطلب وتلهف على ما هو لغيرك، فما ليس هو عندك لا يخلو إما أن يكون لك أو لغيرك، فإن كان لك فهو إليك صائر، وأنت إليه مقاد ومُسير، فاللقاء عن قريب حاصل، وما ليس لك؛ فأنت عنه مصروف، وهو عنك مولٍّ، فأنى لكما التلاقي، فاشتغل بإحسان الأدب فيما أنت بصدده من طاعة مولاك - عز وجل - في وقتك الحاضر، ولا ترفع رأسك ولا تمدّ عنقك إلى ما سواه)[1].

(1) فتوح الغيب ص57 – تحقيق د. جمال الدين الكيلاني

وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

(المصائب التي لا تمس الدين في حقيقة الأمر ليست بمصائب؛ لأن قسمًا منها: تنبيه رحماني يبعثه الله– سبحانه – إلى عبده؛ ليوقظه من غفلته، بمثل تنبيه الراعي لشياهه عندما تتجاوز مرعاها، فيرميها بحجر، والشياه بدورها تشعر أن راعيها ينبهها بذلك الحجر ويحذرها من أمر خطير مُضِر؛ فتعود إلى مرعاها برضى واطمئنان. أما القسم الآخر من المصائب فهو كفارة للذنوب)[1].

---

(1) كليات رسائل النور ج 3 اللمعات ص 16

مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ[1]:

إن المؤمن الذي امتلأ قلبه بمعرفة الله- تعالى - يرى فيما يصيبه من مصائب وشدائد؛ أنها لون من ألوان التربية الربانية له نتيجة معصية ارتكبها أو شهوة محرمة اقترفها أو تقصير في الطاعات بدر منه، ذلك لأنه يعلم أن المصائب والشدائد، والفقر والأمراض، إن هي إلا أدوية وعلاجات تنبه الشارد وتوقظ الغافل وتقوده إلى محراب التوبة والندم، وقد يتألم المرء في باديء الأمر، ويتساءل عن الحكمة في هذه المحنة، ثم يظهر له بعد إفاقته من غفلته وتحرره من أسر شهوته أن الشدة التي حاقت بها إن هي إلَّا محض رحمة وفضل وإحسان من الله- تعالى - تعيده إلى طريق الإيمان وسبيل الحق. قال الله - عز وجل -: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾ **(الأعراف:94)**

---

(1) وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ. قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هذه الآية: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} فَكُلُّ سُوءٍ عَمِلْنَاهُ جُزِينَا بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "غَفَرَ اللَّهُ لكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، ألستَ تَمْرضُ؟ ألستَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصيبك اللَّأْوَاءُ؟ " قَالَ: بَلَى. قَالَ: "فهو ما تُجْزَوْنَ به"(تفسير ابن كثير ج3 / 417)

إن من شأن الشدائد أن تصفّي النفوس من شوائب الضلال العالقة بها، وتنقي القلوب من الوساوس المستولية عليها، وتكشف عن العقول الظلام المحيط بها، وتبعد المرء عن جوّ الغفلة واللامبالاة، الذي تستدعيه حالة الأمن والطمأنينة والاسترخاء الذاتي للنعيم وللراحة اللاهية، فإذا هزّته المصائب والفواجع؛ شعر بحاجته اللجوء إلى الله والانطراح على أعتابه.. فما يأخذ الله به الغافلين من الشدائد والمحن ليس من أجل التسلية والتشفي - تعالى الله عن ذلك - ؛ وإنما من أجل أن ترق القلوب الجامدة، وتتعظ المشاعر الخامدة، ويتجه البشر الضعاف إلى خالقهم، يتضرعون إليه ويستغفرونه، عما فرط منهم من خطايا.

وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم:41)

فالله - تعالى - لا يريد الانتقام من عباده، عندما يسلط عليهم آثار أعمالهم، وإنما هي بمنزلة السوط يؤدبهم به، عسى أن يغيروا ما بأنفسهم، ويعودوا إلى صراط الله الحميد، فيبسط لهم من جديد بساط نعمته، ويخلع عليهم رداء رحمته.

قال النبي - عليه الصلاة والسلام -:

(ما يُصيبُ المؤمنَ من نصَبٍ(تعب)، ولا وصَبٍ (وجع) ولا همٍّ ولا حزَنٍ، ولا أذًى ولا غمٍّ، حتى الشوكَة يُشاكها؛ إلا كفَّرَ اللهُ بها من خطاياه) (1)

(1) رواه البخاري (5641) ومسلم (2573)

(فكما يتأذّى المؤمن إذا عَضّه الشر بنابه فأنهكه، فإنّه - أيضًا - يستبشر به طُهرة لنفسه من أثقال الذنوب وأحمال الخطايا، حتّى إذا قدِم على ربّه يوم الجزاء، غُمِس في النعيم المقيم فلا وجع معه ولا بعده، لذّة مشرقة بلا كدور ومتعة باقية فلا فتور) [1]

وما أجمل قول الفضل بن سهل - رحمه الله -: (إن في العلل (أي الأمراض والأسقام) لنعَمٌ لا ينبغي للعاقل أن يجهلها، فهي تمحيص للذنوب، وتعرّض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وتذكير بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للتوبة، وحضّ على الصدقة)

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ:

(كثيرًا ما ينغمس الإنسان المغرور بالمتع واللذائذ القريبة الماتعة، في بحر الغواية، ويوغل في طريق التيه والإعراض عن أمر الله- تعالى-؛ فلا يرى في اللذة الحرام ما يستنكره مادامت تروي غلّته وتشبع نهمته، ولا يرفع رأسه إلى السماء للتفكّر ساعة أو لمراجعة النفس لحظة، فقد غطّى ران الفتنة قلبه؛ فهو لا يسمع غير حسيس المتعة الحرام ولا يرى غير بارقة اللذة النجسة. هنا، تأتيه لسعة الألم الحارقة، كمرض أو فقد مال أو عيال، فترتاع النفس وتتألّم، وتهزّه البليّة هزًّا وترجّه رجًّا؛ لتنزع عن قلبه قشور الفتنة الرابضة على مسام الإحساس في صدره، فتنفتح عينه على حاله البئيس وإيمانه المهدر المسفوح على أعتاب شهوته الجامحة، فيرفع يد الضراعة

---

(1) مشكلة الشر ووجود الله ص 135 - د. سامي عامري

طلبًا للصفح والمغفرة)[1]، ويبادر إلى التوبة ويقف في مقام الاعتذار والانكسار موقنًا أنه لا يرفع المصيبة إلا خالقه، ولا يقيه شرَّها سواه.

وهكذا، فالمصائب جرس إنذار تهز الغافل حتى يدرك عجزه، ويتخلى عن غروره، ويخفف من طغيانه، وتذكره بأن الفرار إلى الله- تعالى - هو الحصن الآمن الذي يحميه من شرور المعاصي والآثام، ويقيه من لفحات الذنوب ونيرانها.

فمتى عاقبك الله - تعالى - عند أدنى زلة أو هفوة، فاعلم أنك كريم عنده يبتليك؛ ليهذبك، ويطهرك من أدرانك، ويُذكرك بشؤم ذنوبك، حتى لا تسقط في فخ التمادي والإصرار، فهي وإن كانت مصائب وشدائد في ظاهرها، إلا إنها نعم وألطاف في حقيقة الأمر وباطنه.

أخي،

(أتظن أن المريض يمرض، وأن الغني يفتقر، وأن الهم والغم ينزل، وأن المصائب والمكاره تلم، وأن ذلك كله يحل، وأن الله - عز وجل - في هذه الساعات العصيبة قد تحولت رحمته عن هؤلاء ونقصت بعض الشيء عن هذا المخلوق؟!

كلا. كل ذلك لم يكن، والرحمة الإلهية هيَ هيَ، لا تتحول ولا تنفصل، لكن الله - تعالى - يعامل كلًّا بما يناسب، ويسوق له من العلاجات ما يلزم، وحسبك أن تنظر إلى معاملة الأم والأب لطفلهما حينما يمرض،

(1) المرجع السابق ص 133 - 134

إنهما يشددان عليه في تطبيق ما يلزمه من حمية وعلاج، وما يشددان عليه هذا التشديد، إلا لفرط رحمتهما به وشديد حنانهما عليه.. يشددان عليه؛ ليدفعا عنه ما ألَمَّ به من مرض، وينقلاه من حالِ التعاسة والشقاء إلى السعادة والهناء، وحسبك أن تنظر في هذا، وهو - سبحانه وتعالى - من رحمته وضع الرحمة والحنان بقلبهما عليك لا على سواك من أطفال الغير، لتدرك طرفًا من رحمة الله - تعالى - بك، حينما يسوق ما يسوق من شدائد وآلام. إنه يسوق لك ذلك دواءً لنفسك وعلاجًا لما بها من علل وأدران، وما ذلك كله إلا أثر من آثار رحمته - تعالى - بك وحنانه عليك. فغيِّر ما بنفسك من سوء واستقم يغيِّر اللهُ عليك)[1].

حكمة الابتلاء بالذنوب والمعاصي:

قد يتساءل كثيرون عن حكمة وقوع المعاصي وما يترتب عليها من الابتلاءات والعقوبات، وربما خطر في بالهم السؤال الآتي: ألم يكن المولى - عز وجل - بقادر على أن يمنع هذه المعاصي؛ فلا تقع أصلًا!؟

وعن هذا التساؤل، أجاب الإمام ابن القيم باستفاضة، وفصّل أنواع الحكمة الإلهية التي اقتضت وقوع الذنوب أو المعاصي، نذكر منها:

1 - تعريف العبد فضل الله وإحسانه.. فهو - سبحانه - يحب أن يتفضل على عباده، ويتم عليهم نعمه، ويريهم مواقع بره، ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلى من أساء، ويعفو

(1) أسرار السبع المثاني ص61 - محمد أمين شيخو

عمن ظلم، ويغفر لمن أذنب، ويتوب على من تاب إليه، ويقبل عذر من اعتذر إليه.

2 – تعريف العبد عزة الله – سبحانه – في قضائه، ونفوذ مشيئته، وجريان حكمته، وأنه لا محيص للعبد عما قضاه عليه، ولا مفر له منه، بل هو في قبضة مالكه وسيده.

3 – تعريف العبد حاجته إلى حفظ مولاه له، ومعونته، وصيانته، وأنه كالوليد الطفل في حاجته إلى من يحفظه، ويصونه، فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك، وأن مولاه إذا وكله إلى نفسه وكله إلى عجز وخطيئة وتقصير، فهلاكه أدنى إليه من شراك نعله.

4 – استجلابه من العبد ما هو من أعظم أسباب السعادة له من استعاذته واستعانته به من شر نفسه وكيد عدوه، ومن أنواع الدعاء، والتضرع، والابتهال، والإنابة، والفاقة، والمحبة، والرجاء، والخوف، وأنواع من كمالات العبد فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب.

5 – تعريف عبده سعة حلمه وكرمه في ستره عليه، وأنه لو شاء لعاجله على الذنب ولهتكه بين عباده فلم يطب له معهم عيش أبدًا، ولكن جّلله بستره وغشاه بحلمه، وقيض له من يحفظه، وهو في حالته تلك، بل كان شاهدًا وهو يبارزه بالمعاصي والآثام، وهو مع ذلك يحرسه بعينه التي لا تنام.

6 – إقامة حجة عدله على عبده ليعلم العبد أن لله عليه الحجة البالغة، فإذا أصابه ما أصابه من المكروه، فلا يقال من أين هذا، ولا من أين أتيت ولا بأي ذنب أصبت، فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جليلة إلا بما كسبت يداه، وما نزل بلاء قط إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة، ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة بين عباده يكفر بها من خطاياهم، فهي من أعظم نعمه عليهم وإن كرهتها أنفسهم، ولا يدري العبد أي النعمتين عليه أعظم نعمته عليه فيما يكره أو نعمته عليه فيما يحب.

7 – أن يخلع صولة الطاعة من قلبه وينزع عنه رداء الكبر والعظمة، الذي ليس له ويلبس رداء الذل والانكسار والفقر والفاقة فلو دامت تلك الصولة والعزة في قلبه؛ لخيف عليه ما هو من أعظم الآفات.

8 – أن التوبة توجب للتائب آثارًا عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها، فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه؛ عبوديات أخرى، فإنه إذا تاب إلى الله تقبل الله توبته، فرتب له على ذلك القبول أنواعًا من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها، بل يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها.

9 – إن الذنب يوجب لصاحبه التقيظ والتحرز من مصائد عدوه ومكامنه، ومن أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكامنهم، ومن أين يخرجون عليه، وفي أي وقت يخرجون، فهو قد استعد لهم وتأهب، وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم [1]

من ثمرات الابتلاء:

كلما أصابني الهم والكآبة، وضيق الصدر، ووحشة النفس، أعود إلى قلبي أفتش عما بداخله؛ لعلي أكتشف معصية منسية، أو شهوة مستحكمة أو غفلة مزمنة، فأستشعر رغبتي في الفرار إلى الله - عز وجل - وإرادة الصلح معه!

(1) نقلًا من مفتاح دار السعادة (298 – 308)، وتقريب طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص 280 – 285) بتصرف. فارجع إلى هذين الكتابين النفيسين؛ فقد ذكر ابن القيم من الحكم أضعاف ما نقلت.

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

(إن الْإِنْسَـان لَا يَأْتِيهِ الْفرج وَلَا تُدْرِكهُ النجَاة، إِلَّا بعد إخفاق أمله فِي كل مَا كَانَ يتَوَجَّه نَحوه بأمله ورغبته، وَعنـد انغـلاق مطالبه، وَعجـز حيلتـه، وتناهي ضره ومحنتـه، ليَكُون ذَلِك باعثًا لَهُ على صرف رجائه أبدًا إِلَى الله – عز وَجل –، وزاجرًا لَهُ على تجَاوز حسـن ظَنّه بِهِ) [1].

---

(1) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج1 / 163

افتح نافذة الأمل:

من أكثر الأوقات التي ينشط فيها الشيطان – عن تجربة – أوقات الشدة والعسر، ولحظات الضيق والكرب، فيهمس لضعاف الإيمان بأن هذه المحنة ستطول، وأن الألم سيستمر، وأن المعاناة لن تنتهي، فتحبس نفسك في زنزانة ضيقة تمنع عنك نسمات الأمل والرجاء، وتعشش في صدرك عناكب الهم والقلق والإحباط، وتتجرع مرارة الآلام والأحزان ناسيًا أن قدر الله دائمًا يعمل، ودائمًا يُغير، ودائمًا يُبدل، ودائمًا يُنشئ ما لا يجول في حسبان البشر من الأحوال والأوضاع. فرج بعد ضيق، وعسر بعد يسر، وبسط بعد قبض ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1] (**الشرح** 5 - 6).

---

(1) يقول المفسّرون والبلاغيّون: إن المعرفة إذا كررت كانت هي هي، وأن النكرة إذا كررت كان اللفظ الثاني غير الأول. وهنا يقولون: إن كلمة «العسر» وهي معرفة هي عسر واحد بعينه فى الموضعين، وأما كلمة «يسر» وهي نكرة؛ فإنها يسر بعينه في كل موضع، ومن هنا قالوا «لن يغلب عسرٌ يسرين» يعنون بذلك أن العسر دائمًا يواجهه يسران، وأنهما لا بد أن يقهراه ويغلباه. هذا وجه يراه العلماء في هذا التكرار. ووجه آخر، نراه نحن والله أعلم – وهو هذه المعيّة «مع»، التي تحمل مع كل عسر يسرًا مصاحبًا له، مندسًّا فى كيانه. «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» أي إن العسر – أيّ عسر – لا يلقى الإنسان إلا ومن محامله اليسر، الذي يعمل على مقاومته، ومصارعته حتى يقهره آخر الأمر، ويتركه صريعًا؛ ليأخذ اليسر مكانه، متمكنًا، لا ينازعه عسر! هكذا الشدائد تتولّد منها دائمًا مواليد الخير، وتستنبت في أرضها أطيب الثمرات، وأكرمها، وأهنؤها) (التفسير القرآني للقرآن ج16 / 1611

مع الحزن سرور، ومع المرض عافية، ومع الفقر غنى، الشدة يتلوها رخاء، ولكل حادثة عزاء، الباب الموصد له مفتاح، والقلعة المنيعة لها باب، ولكل قميص من الشدة جيب من اللطف، ولكل غرفة ضيقة من الكرب كوة من الفرج، إذا اشتد الحبل انقطع، وإذا ضاق الأمر اتسع، وإذا وقع المكروه ارتفع.

وهكذا عندما تستقر هذه الحقيقة في نفوس البشر، يظل تطلعهم إلى ما يحدثه الله من الأمر متجددًا ودائمًا، وتظل أبواب الأمل في تغيير الأوضاع مفتوحة دائمة، وتظل نفوسهم متحركة بالأمل، ندية بالرجاء، لا تغلق المنافذ ولا تعيش في سجن الحاضر.

فالمؤمن إذا مسه سوء، وأصابه ضرّ، وعصفت به المصائب، وزلزلته النكبات، وأقضت مضجعه الحوادث، ودهمته الخطوب؛ لم يقتله الجزع، ولم يخنقه اليأس والقنوط؛ لأنه يعلم بإيمانه باللّه - عز وجل - أن تلك الحال لن تدوم، وأن بعد الضيق فرجًا وسعة، وأن مع العسر يسرًا، بل أكثر من يسر!

(**اليسر الأول**: يسر الصبر والرضا والشكر؛ لأنه إذا كان الإنسان في مصيبة كمرض، ثم رزقه الله سرور القلب، والطمأنينة، والرضا، حتى صار لا يبالي شُفي أم لم يشف، لِمَا عنده من الإيمان؛ كان هذا يسرًا عظيمًا. وبذا تحصل سعادة القلب، وسرور النفس، فهذا اليسر المصاحب للرضا والصبر والشكر.

اليسر الثاني: هو يسر الفرج وزوال الغم، أي: زوال الشيء الذي يعاني منه الإنسان مرضًا كان أو فقرًا، أو سجنًا، أو همًّا، أو غمًّا. وهذا غير الأول؛ فالأول أن يسلم ويرضى بقضاء الله، والثاني أن يهيأ له انكشاف هذا الأمر من حيث لا يحتسب.

اليسر الثالث: يسر يعمله الإنسان ويحاوله، وهو يسر التسبب والحيلة؛ لأنه مطلوب من الإنسان أن يبذل الأسباب، بأن يتعالج، أو يطلب العلم، أو يبذل المال، يحرص على إزالة الأسباب الموجبة للهم والغم، وتحصيل الأسباب الموجبة للسعادة.

اليسر الرابع: يسر العطاء والمنحة والفضل من الله - سبحانه وتعالى - من غير سبب، والله - تعالى - يقول: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص39)، فقد يعطي الله - تعالى - العبد من غير تسبب.

اليسران الخامس والسادس: يسر الدنيا ويسر الآخرة، وهو ما يعطي الله - تعالى - العبد في الدنيا من الخير والبر والفضل، فإنه فاته ذلك ظفر باليسر الأخروي، ولذلك إذا تخيل ما عند الله - تعالى - من النعيم والفضل والعطاء، سُر بذلك، واطمأنت نفسه وقرت عينه.

اليسران السابع والثامن: يسر الحال والمآل: فيسر الحال هو ما يعيشه المرء الآن، والمصيبة قد تكون سببًا في ألوان من الفيض والفضل والعطاء، وأما يسر المآل، فهو الانتظار والترقب، وانتظار القادم، وتوقع الأفضل)[1].

---

(1) إشراقات قرآنية ج2 / 78 - 79 - د.سلمان العودة

إنَّه إذا لاح عسرٌ فارجُ يُسرًا فإنَّه لهُ فَرجٌ مِمَّا أَلحَّ به الدَّهرُ
لَهُ كُلَّ يَومٍ في خَليقتِهِ أَمْر قَضَى اللهُ أنَّ العُسرَ يَتبَعُهُ اليُسرُ

قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا:

إنه مما يهون على العبد حدة الشدائد وقسوة المصائب أن لها زمنًّا لا يتجاوزه، ووقتًا لا يتخطاه.. (فالله جعل لكل شيء قدرًا، فإذا جاء موعد المقدور فلا يستأخر عن وقته ولا يستقدم.

للكربة وقت ثم تزول، ولها زمن ثم تحول؛ لأن الله– عز وجل – قد جعل لكل شيء قدرًا.

للمرض أيام معدودة، وليال محسوبة، ثم ينكشف، لأن الله – عز وجل – جعل لكل شيء قدرًا.

للهمِّ ساعات، وللغم أوقات، ثم ينجلي بسرور لاحق، وفجر صادق؛ لأن الله – عز وجل – جعل لكل شيء قدرًا. إن الإيمان بأعمار المصائب سلوة للمنكوبين، وإن التصديق بآجال المحن عزاء للمصابين.

إن للمكروه زمنًا لا يتجاوزه، فتخيلك في إزالته قبل حينه ضرب من الهوس، وفن من فنون الوسوسة؛ لأن مهمتك كيف يزول، لا متى يزول؟ فمن حرص على كيفية زواله دعا وأخلص، وجد واجتهد، واتقى وصبر، وتوكل وأناب، وفوض الأمر إلى الملك الوهاب. ومن تعلق قلبه بزمن الزوال، ومتى يرتحل المكروه؛ استبعد الفرج، واستبطأ الروح، وصاحب الإحباط، ورافقه الفشل وسامره اليأس، وحادثه

القنوط، فلا يزال في أودية الاضطراب وطرق السخط والندم والحسرة واللوم، وتمزيق القلب بسياط القلق، فقلبه فزع، وذهنه شارد، وحاله كاسف، وباله مشتت، وباطنه ناقم، ثائر معترض شاك) [1]

وما أجمل ما قاله الرافعي - رحمه الله -:

(ما أشبه النكبة (المصيبة) بالبيضة تحسب سجنًا لما فيها وهي تحوطه وتربيه وتعينه على تمامه، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة، والرضى إلى غاية، ثم تنقف (تفقس) البيضة فيخرج خلقًا آخر، وما المؤمن في دنياه إلا كالفرخ في بيضته، عمله أن يتكون فيها، وتمامه أن ينبثق شخصه الكامل فيخرج إلى عالمه الكامل) [2]

وأين حسن الظن بالله - عز وجل - !

في أشد لحظات المعاناة والانكسار، يحتاج المؤمن إلى جرعات مكثفة من حسن الظن بالله - عز وجل - والثقة في تدبيره حتى يتمكن من قهر اليأس، ودفع الوساوس، ومراغمة الإحباط والفشل، وغرس نبتة الأمل والتفاؤل، ليتحرك بعزيمة قوية وهمة عالية وإرادة فولاذية لا تقف أمامها الحواجز والسدود ولا تعوقها السلاسل والقيود حتى يأتي الفرج واليسر الموعود.

وهل تتجلى إشراقات الأمل وأنوار التفاؤل إلا وسط أدخنة الشدائد وظلمات المحن!

---

(1) حدائق ذات بهجة ص 137 - 138 بتصرف - د. عائض القرني

(2) بدائع الحكم من وحي القلم ص 94 - حسن السماحي سويدان

وما الذي يفرق بين الإيمان الحقيقي والإيمان المزيف؛ إلا حسن الظن بالله في اللحظات الحالكة والأوقات العصيبة؟!

وحسن الظن بالله هو ظنّ ما يليق بالله - تعالى -، واعتقاد ما يحق بجلاله، وما تقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا مما يؤثر في حياة المؤمن على الوجه الذي يرضي الله - تعالى -، وهو يثمر اعتماد المؤمن على ربِّه في أموره كلها، واطمئنانه بما عند الله - تعالى -، وعدم الاتكال على تدبير النفس.

(أخي، هَبْ أن أسبابك انقطعت، ولم يبق لديك منها شيء، وبذلت قصارى جهدك في تحصيل مطلوبك، ثم لم تبلغ مرادك.. فهل تعلم أن لك ربًّا قديرًا يخرق الأسباب، ويجبر كسر المؤمنين، ويسد خلل المتوكلين، فكيف يتسرَّب بعدها اليأس إلى قلبك؟!، وكيف تذهب نفسك على جهدك حسرات؟!

ومنبع اليأس من رحمة الله أن العبد يجعل قوة الله العليا مساوية لقوة الخلق، فإذا ضاقت به الدنيا وتكاثرت عليه الخطوب أصابه اليأس؛ لأن قلبه لم يؤمن حق الإيمان بالقدرة الإلهية، وغفل عن قوة الله - تعالى - وبطشه وسلطانه، فوقع فريسة لهذه الأوهام، ولذا جاء في الأثر: (لا كَرْبَ وأنت رَبُّ). وما عزَّ عليك بقانون الأرض، فاطلبه بقانون السماء، وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب، وتوكَّل على الله - تعالى - ؛ فليثق أن الله يمِدُّه بما هو فوق الأسباب) [1].

(1) ينابيع الرجاء ج1 / 143 - د. خالد أبو شادي

انظر إلى (أصحاب الكهف) لما لجأوا إلى ربهم واعتصموا بحبله، غمرت رحمته - سبحانه - الكهف الموحش المظلم، فتبدل الخوف بالأمن، والوحشة إلى أنس، وتحول الضيق والعسر إلى أمل ويسر. وهكذا دائمًا نسمات الرحمة الإلهية تهب على القلوب الواثقة في فرج الله ويسره، المستبشرة بجوده وكرمه؛ لتمنحها الأنس والسكينة في أحلك الأوقات وأصعب اللحظات.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - قال: (إنّ حسن الظّنّ بالله - تعالى - من حسن العبادة) [1].

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: (والّذي لا إله غيره ما أعطي عبد مؤمن شيئًا خيرًا من حسن الظّنّ بالله - عزّ وجلّ - والّذي لا إله غيره، لا يحسن عبد بالله عزّ وجلّ الظّنّ إلّا أعطاه الله - عزّ وجلّ - ظنّه، ذلك بأنّ الخير في يده)[2]

ويحك يا صاح..

لم يعودك إلا الإحسان، ولم تجده دائمًا إلا الكريم المنان، ثم تستسلم في أوقات المحن لوساوس الشيطان يغريك بالسخط والجزع، ويلقي بك في نهر الأحزان (إن لم تُحْسِن ظنك به لأجل جميل وصفه،

(1) رواه (أبو داود (4993)، والترمذي (3679)

(2) (رسائل ابن أبي الدنيا في الزهد والرقائق والورع) ج1 / 122

حَسِّن ظنّك به لوجود معاملته معك، فهل عوّدك إلّا حَسَنًا، وهل أسدى إليك إلّا مِنَنًا) [1]

يعقوب عليه السلام وحسن الظن بالله – تعالى –:

إن المتدبر في قصة يعقوب – عليه السلام – ليرى أن الأمل بالله وحسن الظن به كانا السلوى له والبلسم في كل أحداث قصته مع أبنائه، فلما فقد يوسف وزعم إخوته بأنه قد أكله الذئب، لم يزد على أن يقول في يقين وتسليم: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (**يوسف**: 18)، ثم انتظر الشيخ الكبير أن يؤوب ابنه الغائب، وطال الانتظار دون جدوى. ومرت السنون على الشيخ الآمل في الغيب، وإذا هو بدل أن يعود ابنه المرتقب يفقد ابنه الآخر، وينكأ الجرحَ القديم جرحٌ جديد!. ماذا يصنع؟، أينفس عن جوّاه بالصراخ والجزع؟ لا، إنه يقول مرة أخرى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (**يوسف**:83). إن الأمل بالله – تعالى – في نفس الأب الكريم يتناسب طرديًّا مع انتفاش المصيبة، فكلما كبرت كبر أمله بربه وزاد توكله عليه، لقد تحمل المأساة الأخيرة بالعاطفة نفسها التي تحمل بها الأولى، وظل

---

(1) ما بين القوسين من حكم ابن عطاء – رحمه الله – . والمعنى: إن لم تقدر أن تحسن ظنك بالله – تعالى – لشهود وصفه بالرأفة والرحمة التي لا تتخلف، فحسن ظنك به لوجود معاملته معك بلطفه ومننه، فإنه ما عودك إلا عطاءً حسنًا، ولا أسدى أي أوصل إليك إلا مننًا كبيرة ونعمًا غزيرة.

على تشبثه برحمة الله – تعالى –، يرمق الغد، وفي فؤاده شعاع من رجاء لم تطفئه الأحداث، وقال لأبنائه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف: 87)

(وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ).. شعار المؤمن إذا اشتدت الأزمات وعصفت النوائب، يشحذ هممهم ويجعلهم يواجهون صعوبات الحياة باتزان ورباطة جأش.

(وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ).. تفاؤل يدفع المرء لتجاوز المحن، ويحفزه للعمل، ويورثه طمأنينة النفس وراحة القلب، فتهفو نفسه للتطلع للفرج الذي يعقب كل ضيق، ولليسر الذي يتبع كل عسر.

(وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ).. وكيف ييأس العبد الذي يعرف قدرة الله– تعالى – المطلقة وتصرفه التام في الكون، وعظيم رحمته بخلقه، ومعيته للمؤمنين، فهو لا يتوقع منه إلا كل خير، بل يرى العافية في ثنايا البلاء؟!

ولرب نازلةٍ يضيق بها الفتى ... ذرعًا وعند الله منها المخرجُ
ضاقتْ فلما استحكمتْ حلقاتها ... فُرجت وكان يظنها لا تُفرجُ
ياصاحب الهم إن الهم منفرج ... أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه ... لا تيأسنّ فإن الكافي الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة ... لاتجزعن فإن الكاشف الله
إذا بُليت فثق بالله وارض به ... إن الذي يكشف البلوى هو الله

من ثمرات الابتلاء:

كلما فارق الأمل قلبي ذكرته بلحظات مريرة مضت، جثم فيها اليأس على صدري وتكاثفت سحب همي وغمي، حتى إذا طال الأمد وأوشك القلب على الانهيار، غمرته نسمات الرحمة الربانية، فانقلبت المحنة إلى منحة، والعسر إلى يسر، والضيق إلى فرج، والحزن إلى سعادة.. فيا ليتني أتذكر هذه اللحظات عند اشتداد الكربات وتفاقم الأزمات.

وعرفت الله الصمد

(الصمـد اسـم يحمل التقديـس والتعظيـم، والتنزيه والتكريم، فالعظمة فيه لله - تعالى - والاستغناء عن كل الأموات والأحياء، بل منه تطلب الأشياء، فإليه الدعاء، ومنه الرجاء، وله الثناء..

ففـي الصمد رسـائل المجد الكامل، والغنى الشـامل، والكـرم الهاطـل، واللطـف الحاصـل الواصـل، والبرّ النازل.. وفي الصمد خمس وسائل: الدعاء، والرجاء، وصدق الالتجاء، ولطيف الاستجداء (طلب المعونة)، وكمال غنى الخالق ونقص العباد الفقراء)

(د. عائض القرني)

معرفة الله مفتاح الأمان:

إن طبيعة الحياة الدنيا أنها لا تخلو من الأزمات والنكبات والكربات، يتعرض فيها الإنسان للإخفاق والفشل، ويكابد مرارة الآلام والحرمان، ويتقلب بين الهموم والأحزان. ولابد أن يمتلك - المرء لمواجهة كل ذلك - معرفة راسخة بالله - عز وجل - تمده بالقوة والعون، وتمنحه الأمن عند اشتداد المخاوف، والأمل عن تكاثف سحب اليأس، وتفتح له الأبواب المغلقة، وتيسر لك السبل المتعسرة.

فليس هناك أفضل لأوجاع القلب وهموم النفس من دواء إلا تدبر أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، فهي تسكب في القلب اليقين والطمأنينة بأن لهذا الكون ملكًا قادرًا حكيمًا لطيفًا رحيمًا يتولى شئونه ويدبر أموره، يرعى أولياءه ويحفظ عباده.

فمتى اغترف القلب من هذا المعين، انسابت في القلب نسمات المحبة تنبهه إذا غفل، وتحفزه إذا وهن، وتثبته إذا تألم، وتفتح له بابًا إلى الرضا والسكون، مما يحمي قلبه من الجزع والانهيار في أوقات الشدائد وعند حلول الصدمات، ويجعله قادرًا على قهر اليأس ومراغمة الإحباط. قال رسول الله - عليه الصلاة والسلام -: (تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة) [1]

---

(1) رواه أحمد في المسند (2800)

لقد منّ الله- تعالى - عليّ في فترة محنتي ومعاناتي بدراسة أسماء الله الحسنى وتدبرها [1]، فكان من ضمن الأسماء التي كان لها بالغ الأثر وعظيم النفع اسم الله الصمد. ولقد زاد عجبي عندما وجدت هذا الاسم قد ذكر في سورة واحدة فقط. سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، سورة نحفظها عن ظهر قلب، ونرددها كثيرًا في صلواتنا، دون أن ننتبه إلى معنى هذا الاسم العظيم أو نغترف من نفحاته وأنواره.

من أسرار وإشراقات اسم (الصمد):

الصمد: المقصود في الرغائب والحوائج، المستغاث به عند النوازل والمصائب، فهو الملجأ عند الشدائد والحاجات، والمفزع عند النكبات والكربات.. تصمد إليه الكائنات، تسأله الحاجات، بشتى اللغات، وكافة النغمات، فلا تنتهي خزائن أفضاله، ولا تنفد كنوز نواله[2]

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -:(الصمد من تصمد نحوه القلوب بالرغبة والرهبة وذلك لكثرة خصال الخير فيه، وكثرة الأوصاف

---

(1) كان من أوائل الكتب التي قرأتها آنذاك (موسوعة أسماء الله الحسنى- د. محمد راتب النابلسي) وهي موسوعة قيمة في ثلاثة مجلدات ضخمة، ثم تتابعت الكتب بعد ذلك، فكنت أحرص على شراء كل ما أعتقد أنه جيدًا ونافعًا في أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

(2) قال في اللسان: «صمده يصمده وصمد إليه كلاهما: قصده، وصمد صمد الأمر: قصد قصده واعتمده، وأصمد إليه الأمر: أسنده.. والصَّمَدُ بالتحريك: السيد المطاع الذي لا يقضى الأمر دونه، وقيل: الذي يصمد إليه في الحوائج أي يقصد» (لسان العرب 4/ 2495)

الحميدة له، ولهذا قال جمهور السلف منهم عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: «الصمد: السيد الذي كمل سؤدده، الحكيم الذي كمل حكمه، الرحيم الذي كملت رحمته، الجواد الذي كمل جوده» (1)

وقال الشيخ السعدي - رحمه الله تعالى -: (الصمد): أي الرب الكامل والسيد، العظيم، الذي لم يبق صفة كمال إلا اتصف بها، ووصف بغايتها، وكمالها بحيث لا تحيط الخلائق ببعض تلك الصفات بقلوبهم، ولا تعبر عنها ألسنتهم، وهو المصمود إليه المقصود في جميع الحوائج والنوائب ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ (الرحمن: 29)، فهو الغني بذاته، وجميع الكائنات فقيرة إليه بذاتهم: في إيجادهم، وإعدادهم، وإمدادهم بكل ما هم محتاجون إليه من جميع الوجوه، ليس لأحد منها غنى مثقال ذرة، في كل حالة من أحوالها) (2)

جاء ذكر (الصمد) في سورة من أعظم سور المصحف، ومن أقصرها، وهي سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن الكريم ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾. وكأن الصمود له - سبحانه - أهم تجليّات الإخلاص في العبادة، فمن أكثر من استحضار معنى الإخلاص في عباداته؛ أكسب قلبه صفة الرضوخ إلى مولاه، والصمود له وعدم الالتجاء إلّا إليه.

كما ورد في أكثر من حديث من أحاديث النبي - عليه الصلاة والسلام -، منها حديث (الاسم الأعظم)، فعن بريدة بن الحصيب -

(1) الصواعق المرسلة 3/ 1027.
(2) بهجة قلوب الأبرار ص 165.

رضي الله عنه – قال: سمع النبي – ﷺ – رجلًا يدعو، وهو يقول:(اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُوًا أحد). فقال رسول الله– ﷺ –: «والذي نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى» (1)

(أعجبتني مقولة نقلها أبو حامد الغزالي عن أحد العارفين، يقول فيها عن اسم الله الأعظم:

«فرّغ قلبك من غيره، ثم ادعه بأي اسم يجبك».. وهذا فحوى معنى الصمد، اجعل في قلبك الله، ثم قل أي شيء من مرضاته سيكون إلهيّ المسحة، وربّانيّ الصبغة.. كل عارض يعرض إنّما هو رسالة تقول لك: لديك ربٌّ فالتجئ إليه.

المرض رسالة لتذلّ له..

والفقر برقيّة لتسجد له..

والضعف مكالمة تقول لك استجلب القوّة من القويّ..

الحياة كلّها تصرخ في وجهك: لديك ربٌّ.. اصمد إليه.

يجب أن تعلم أنّه لو لم يأذن للدواء أن يؤدّي مفعوله في جسدك، لما ارتفع عنك ذلك المرض، فاصمد إليه أن يشفيك.

يجب أن توقن أنّه لو لم يصرف تلك السيارة المتهوّرة عنك، لكنت الآن في عداد الموتى، فاصمد إليه أن يحفظك.

(1) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه

يجب أن تتأكد أنّه لو لم يحطك برعايته عندما ركبت البحر.. لكنت الآن طعمًا لأسماك المحيط، فاصمد إليه أن يكون معك.. ولهذا تصمد إليه لترتاح.. ليهدأ لُهاثك.. لتلين مفاصلك.. لأنّك بدونه تركض وتلهث وتتوتّر) [1]

فوا حسرتاه.. كم مرة قرأنا سورة الإخلاص، وعشنا حينًا من الدهر لم نعرف معنى الصمد؟

كم مرة ذللنا أنفسنا لفلان أو علان، من أجل غرض أو مطمع أو وظيفة، وكل ذلك لأن القلب لم يتشبع بمعاني الصمد؟

أين أثر اسم الله الصمد في أعماق قلوبنا؟

أين نحن من التطبيق العملي الفعلي لاسم الله الصمد؟

أليست لك حاجات دينية ودنيوية تتمنى تحقيقها؟

هلا رفعتها للصمد!.. هلا تعلقت بالصمد!

أما علمت أن ابتلاءاتك وأزماتك التي تتعرض لها في حياتك هي رسائل من الله لتتعبد باسمه الصمد وترجع إليه؟

أما تستحي أيها الغافل!.. ربك يقول لك: أنا المقصود في إدراك المطالب، وحصول الرغائب، واندفاع النقم، وتتابع النعم.. فكيف تتوجه بالسؤال إلى غيره، وكيف تنتظر الفضل والعطاء من سواه؟!

---

(1) لأنك الله– رحلة إلى السماء السبعة ص20، ص23 – علي الفيفي

أتيناك بالفقر يا ذا الغنى — وأنت الذي لم تزل محسنا
وعودتنا كل فضل عسى — يدوم الذي منك عودتنا
فما في الغنى أحد مثلكم — وفي الفقر لا عصبة مثلنا
وأنت هو الصمد المرتجى — فيا ليت شعري أنا من أنا
إذ كنت في كل حال معي — فعما ســواك أنــا في غنى

عزٌّ لا يفنى:

إن تدبر اسم (الصمد) يغرس في القلب العزة بالله والاكتفاء به عما سواه، والاستغناء عما في أيدي الناس.. فإذا كان أكثر الناس يلجأون في دنياهم لوسائل يتوهمون فيها العزة والكرامة، والوقاية من الذل والمهانة كالمال والجاه والرئاسة والاحتماء بأصحاب المكانة والنفوذ، وكالتمتع بالمنعة والقوة المادية. فإن المؤمن الذي أشرقت أنوار الصمد في قلبه يتوجه إلى من بيده العزة الحقيقية والحماية الكاملة.

إن (كل الأغيار من دون الله - عز وجل -، لا شأن لهم ولا قيمة، بل ليس لهم وجود ذاتي قط. إذ هو الموجد لهم ابتداء واستمرارًا، وهو المتصرف بهم والباعث لقدراتهم وحركاتهم، إذًا فالاعتماد على هذه الأغيار أيًّا كانت، حمق وتورط في مهلكة. فالذي يبتغي الاعتزاز بالمال إذ يجمعه وينميه، إنما يعتمد من ذلك على ما يشبه الاعتماد على كثيب رمل متنقل. والذي ينسج لنفسه، ابتغاء تحصين عزته، دائرة من الرئاسة والمكانة،

يحمي نفسه من ذلك فيما يشبه بيت العنكبوت. والذي يشحن جسمه بالقوة ويدعم قوته الجسمية بالسلاح والعتاد، موقنًا أنه قد ضمن لنفسه بذلك عزة راسخة لا تزول، أشبه بمن يجعل من الظل المتنقل حرزًا دائمًا له.

كل هذه الأعراض التي تبدو وسائل وأسبابًا، جنود بيد الله يصرّفها كما يشاء ويسخرها لما يريد. إن هي إلَّا أشباح لا حول لها ولا قوة، بل لا وجود لها إن انقطع عنها المدد الإله. فمن اعتصم بالله بجدّ وصدق، وجعل من عبوديته لله حرزًا دائمًا له، بقي محصنًا وسط هالة من العزة لا انقضاء لها ولا تحول له عنها. مهما تقلبت به الأحوال وأقبلت إليه أو تراجعت عنه الأسباب) (1)

أخي القارئ،

صدقني لقد ظللت أبحث طوال محنتي عن ملاذ يقيني من الآلام والمتاعب والمخاوف والهواجس، فلم أجد حصنًا آمنًا ولا ملاذًا نافعًا إلا باللجوء إلى الصمد - سبحانه -، وعندها وجدت الأمل بعد اليأس، والسعة بعد الضيق، والفرح بعد الحزن، والرشد بعد الحيرة والاضطراب، والعزة بعد الذل.

فماذا عنك أنت؟!

ألم يأن الأوان؟

(1) الحكم العطائية شرح وتحليل ج2/ 355 - 395،356

من ثمرات الابتلاء:

عندما تتسلل إلى نفسي مشاعر اليأس والإحباط، أهرع إلى سورة الإخلاص، أقف أمام اسم الله (الصمد) في خشوع وخضوع، فيرتجف قلبي وتستيقظ نفسي من غفلتها وشرودها، فأردد (الصمد.. الصمد)، فيغمرني اليقين، وتحل السكينة، ويعظم الأمل ويقوي الرجاء.

رسالة إلى مريض

(أيها المريض الذي يعاني من كثرة العلل والآفات.. اعلم أن الله – عز وجل – ما ابتلاك إلا لأنه يحبك، ويريد أن يرفع قدرك في عليّين، وتذكر حُسن الجزاء؛ ليخفّ حمل البلاء عليك. فإنّ الأجر على قدر المشقة، والراحة لا تنال إلا على جسور من التعب، وما أقدم أحد على تحمُّل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجّلة، والصبر على مرارة العاجل يفضي إلى حلاوة الأجل، و(إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء) (رواه الترمذي 2396)

في أثناء إعدادي لهذا الكتاب، اطلعت على ما كتبه الأستاذ سعيد النورسي - رحمه الله - في كتابه (اللمعات) [1] تحت عنوان (خمسة وعشرون دواء)، وهي رسالة لكل من أصابه المرض، وضعف جسمه، وشحب لونه، وقلت حيلته، وضعفت وسيلته.

فأحببت أن أختم الكتاب بنقل ثمانية من هذه الأدوية النافعة (بتصرف واختصار)؛ علها تكون تسلية حقيقية ومرهمًا نافعًا لأهل البلاء- وخاصة المرضى.

الدواء الأول: المرض يحول دقائق العمر إلى ساعات من العبادة:

أيها المريض النافد الصبر، تجمّل بالصبر، بل تجمّل بالشكر، فإن مرضك هذا يمكنه أن يجعل من دقائق عمرك في حكم ساعات من العبادة، ذلك لأن العبادة قسمان:

الأولى: العبادة الإيجابية المتجسّدة في إقامة الصلاة والدعاء وأمثالها.

الثانية: العبادة السلبية التي يتضرع فيها المصاب ملتجئًا إلى خالقه الرحيم مستجيرًا به متوسلًا إليه، منطلقًا من أحاسيسه، التي تُشعره

(1) تمت طباعة هذه اللمعات في كتيب صغير بعنوان (رسالة إلى كل مريض ومبتلى)، وقد تمت إضافة ما يتعلق بالمرض والبلاء من رسائل النور للمؤلف، وهي رسالة صغيرة وقيمة، طبعتها دار سوزلر للنشر - مصر

بعجزه وضعفه أمام تلك الأمراض والمصائب. فينال بذلك التضرع عبادةً معنوية خالصة متجردة من كل أنواع الرياء.

الدواء الثاني: المرض مرشد ناصح:

أيها المريض الذي لا يطيق، إن الإنسان لم يأتِ إلى هذه الدنيا لقضاء عيش ناعم جميل مغمور بنسمات الراحة والصفاء، بل جاء إلى هنا؛ ليغنم سعادة حياةٍ أبدية دائمة بما يُسّر له من سبل التجارة برأس ماله العظيم الذي هو العمر. فإذا انعدم المرضُ، وقع الإنسان في الغفلة نتيجة الصحة والعافية، وبدت الدنيا في عينيه حلوة خضرة لذيذة، فيصيبه عندئذ مرضُ نسيان الآخرة، فيرغب عن ذكر الموت والقبر، ويهدر رأس مال عمره الثمين هباءً منثورًا.

في حين أن المرض سرعان ما يوقظه مفتحًا عينيه، قائلًا له: (أنت لست خالدًا ولست سائبًا، بل أنت مسخر؛ لوظيفة، دع عنك الغرور، اذكر خالقك.. واعلم بأنك ماض إلى القبر، وهيىء نفسك وجهّزها). المرض إذًا يقوم بدور مرشد ناصح أمين موقظ، فلا داعي بعدُ إلى الشكوى منه، بل يجب التفيّؤ في ظلال الشكر –من هذه الناحية– وإذا ما اشتدت وطأته كثيرًا فعليك بطلب الصبر منه – تعالى –.

الدواء الثالث: المرض يعرفك بأسماء الله الحسنى:

أيها المريض الشاكي، اعلم أنه ليس لك حق في الشكوى، بل عليك الشكر، عليك الصبر؛ لأن وجودك وأعضاؤك وأجهزتك ليست بملكك أنت، فأنت لم تصنعها بنفسك، ومالك تلك الأشياء

يتصرف في ملكه كيف يشاء. فهو– سبحانه – ألبسك أيها المريض قميص الجسد، وأودع فيه الحواس النورانية المرصعة كالعين والأذن والعقل، فلأجل إظهار نقوش أسمائه الحسنى، يبدّلك ضمن حالات متنوعة، ويضعك في أوضاع مختلفة، فكما أنك تتعرف على اسمه (الرزاق) بتجرعك مرارة الجوع، تتعرف على اسمه (الشافي) بمرضك.

ونظرًا لظهور قسم من أحكام أسمائه الحسنى بالآلام، وانكشافه بالمصائب، ففيها لمعات الحكمة وشعاعات الرحمة وأنوار الجمال، فإذا ما رُفع الحجاب فستجد فيما وراء مرضك الذي تستوحش منه وتنفر، معاني عميقة جميلة محببة ترتاح إليها، تلك التي كانت تنزوي خلف حجاب المرض.

الدواء الرابع: كل حال يزول، فكر في الثواب:

أيها المريض الشاكي من الألم، أسألك أن تعيد في نفسك ما مضى من عمرك، وأن تتذكر الأيام الهانئة اللذيذة السابقة من ذلك العمر والأوقات العصيبة والأليمة التي فيه.

فانظر كيف أن الآلام والنوائب التي عانيت منها سابقًا عندما خَطَرَتْ بذهنك غمرتك بلذة معنوية، حتى هاج قلبك ب (الحمد لله والشكر له)؛ ذلك لأن زوال الألم يولّد لذة وشعورًا بالفرح. ولأن تلك الآلام والمصائب قد غَرست بزوالها لذةً كامنة في الروح سالت

بتخطرها على البال، وخروجها من مكمنها حلاوةً وسرورًا، وتقطرت حمدًا وشكرًا.

الدواء الخامس: المرض يذكرك بعدم الإخلاد إلى الدنيا:

أيها الأخ المضطرب من المرض بتذكر أذواق الدنيا ولذائذها، لو كانت هذه الدنيا دائمة فعلًا، ولو انزاح الموت عن طريقنا فعلًا، ولو انقطعت أعاصير الفراق والزوال عن الهبوب بعد الآن، لانخرطتُ في صفك، ولرثيتك باكيًا لحالك. ولكن مادامت الدنيا ستخرجنا منها قائلة: (هيا اخرجوا..!) صامَّة آذانها عن صراخنا واستنجادنا. فعلينا نحن قبل أن تطردنا هي نابذة لنا، أن نهجر عشقها والإخلاد إليها من الآن، بإيقاظات الأمراض والسعي لأجل التخلي عن الدنيا قلبًا ووجدانًا قبل أن تتخلى هي عنّا.

الدواء السادس: المرض يذيقك لذة النعمة:

أيها المريض الفاقد لنعمة الصحة، إن مرضك لا يذهب بلذة النعمة الإلهية في الصحة بل على العكس، إنه يذيقك إيّاها ويطيّبها ويزيدها لذة، ذلك أن شيئًا ما إذا دام واستمر على حاله يفقد طعمه وتأثيره، حتى اتفق أهل الحق على القول: (إنما الأشياء تُعرف بأضدادها..)، فمثلًا: لولا الجوع لما أعطى الأكل لذته وطعمه، ولولا العلّة لكانت العافية بلا ذوق، ولولا المرض لباتت الصحة عديمة اللذة.. وأسألك: لو لم يكن هذا المرض الذي أصاب رأسك أو يدك أو معدتك.. هل كان بمقدورك أن

تتحسس اللذة الكامنة في الصحة التي كانت باسطة ظلالها على رأسك أو يدك أو معدتك؟ وهل كنت تتمكن أن تتذوق وتشكر النعمة الإلهية التي جسّدتها تلك النعمة؟، بل كان الغالب عليك النسيان بدلًا من الشكر، أو لكنت تصرف تلك الصحة بطغيان الغفلة إلى سفاهة دون شعور)

الدواء السابع: المرض يكفّر الذنوب:

أيها المريض الذاكر لآخرته، إن مرضك كمفعول الصابون، يطهّر أدرانك، ويمسح عنك ذنوبك، وينقيك من خطاياك. فقد ثبت أن الأمراض كفّارات للذنوب والمعاصي. والذنوب هي أمراض دائمة في الحياة الأبدية، وهي في هذه الحياة الدنيا أمراضٌ معنوية في القلب والوجدان والروح. فإذا كنت صابرًا لا تشكو، نجوت بنفسك إذًا بهذا المرض العابر من أمراض دائمة كثيرة جدًّا، وإذا كنت لاهيًا عن ذنوبك، ناسيًا آخرتك غافلًا عن ربك، فإني أؤكد معاناتك من داءٍ خطير، هو أخطر وأفتك وأكبر بمليون مرة من هذه الأمراض المؤقتة، مما يحتم عليك قبل كل شيء أن تبحث عن العلاج التام والشفاء، وما أظنك تجده إلّا في علاج الإيمان وبلسمه الشافي، واعلم أن أقصر طريق لبلوغ ذلك العلاج هو الإطلال من نافذتي (العجز والفقر) اللتين تتفتحان بتمزيق المرض المادي لحجاب الغفلة، واللتين جُبلَ الإنسان عليهما، وبالتالي تبلغ معرفة قدرة القادر ذي الجلال ورحمته الواسعة.

الدواء الثامن: تأسَّ بأهل البلاء:

أيها المريض المتأوه بالأنين، لا تتأوه أبدًا، ولا تئن ناظرًا إلى صورة المرض القبيحة المذمومة، بل انظر إلى معناه وفحواه، وانبسط قائلًا: الحمد لله.

فلو لم يكن معنى المرض شيئًا جميلًا لما كان الخالق الرحيم يبتلي أحبّ أحبائه من عباده بالأمراض والأسقام، فقد جاء في الحديث الشريف: (أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل)[1]، ويقف في مقدمة المبتلين النبي الصابر أيوب - عليه السلام -، ثم الأنبياء الباقون - عليهم السلام -، ثم الأولياء ثم الصالحون. وقد تلقوا جميعًا تلك الأمراض التي قاسوها عبادة خالصة وهدية رحمانية، فأدوا الشكر من خلال الصبر، وكانوا يرونها نوعًا من العمليات الجراحية تمنح لهم من لدن الرحمن الرحيم.

فأنت أيها المريض المتأوه المتألم، إن كنت تروم الالتحاق بهذه القافلة النورانية، فأد الشكر في ثنايا الصبر، وإلّا فإن شكواك ستجعلهم يحجمون عن ضمّك إلى قافلتهم، وستهوي بنفسك في هوة الغافلين، وستسلك دربًا تخيم عليه الظلمات.

---

(1) رواه الطبراني في الكبير، (صحيح الجامع الصغير رقم 1005)

أهم المراجع

1 – في ظلال القرآن – سيد قطب – دار الشروق مصر.

2 – التفسير القرآني للقرآن – د. عبد الكريم الخطيب– دار الفكر العربي مصر.

3 – تفسير القرآن العظيم لابن كثير– تحقيق سامي بن محمد السلامة– دار طيبة الرياض.

4 – لطائف الإشارات – الإمام القشيري– تحقيق د. إبراهيم بسيوني– دار الكاتب العربي للنشر.

5 – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – الشيخ السعدي (ضمن مجموعة المؤلفات الكاملة للشيخ – مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة.

6 – تفسير المنار – الشيخ محمد رشيد رضا – دار المنار القاهرة.

7 – تفسير الشعراوي– دار أخبار اليوم مصر.

8 – التيسير في أحاديث التفسير– الشيخ محمد المكي الناصري– دار الغرب الإسلامي بيروت.

9 – الحكم العطائية شرح وتحليل– د. محمد سعيد البوطي– دار الفكر، بيروت.

10 – الإنسان وعدالة الله في الأرض – د. محمد البوطي– نسخة للشاملة.
11 – الإيمان والحياة – د. يوسف القرضاوي– مكتبة وهبة مصر.
12 – منهج الفن الإسلامي – محمد قطب – دار الشروق مصر.
13 – تقريب طريق الهجرتين وباب السعادتين للإمام ابن القيم– إعداد الشيخ صالح الشامي– المكتب الإسلامي، بيروت.
14 – شفاء العليل في مسائل القدر والحكم والتعليل للإمام ابن القيم – دار التراث القاهرة.
15 – فوائد الفوائد الإمام ابن القيم– إعداد الشيخ علي الحلبي– دار ابن الجوزي الرياض.
16 – الجانب العاطفي من الإسلام– الشيخ محمد الغزالي– نهضة مصر.
17 – خلق المسلم – الشيخ محمد الغزالي– نهضة مصر.
18 – عقيدة المسلم– الشيخ محمد الغزالي– نهضة مصر.
19 – جدد حياتك– الشيخ محمد الغزالي– نهضة مصر.
20 – الجنة حين أتمنى– د. محمد الصوياني– مكتبة العبيكان الرياض
21 – أعذب الخواطر مختصر صيد الخاطر للامام ابن الجوزي – محمد بن صالح فرحان – دار ابن الجوزي، الدمام.

22 - الإنسان بين السراء والضراء - د. محمد السيد يوسف- دار السلام مصر.

23 - لمسات قدرية في سورة يوسف- د. مأمون جرار - دار المأمون، الأردن.

24 - لأنك الله.. رحلة إلى السماء السبعة - علي الفيفي- دار الحضارة، الرياض.

25 - أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها- د. محمد بكر إسماعيل - دار المنار

26 - صفقات رابحة- د. خالد أبو شادي - دار البشير، طنطا.

27 - ينابيع الرجاء - د. خالد أبو شادي - دار طيبة، حلوان.

28 - المقامات الإيمانية تهذيب الرسالة القشيرية- محمد بن صالح فرحان- دار الأندلس الخضراء، جدة.

29 - مقام الرضا عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين- محمد مختار مصلح- دار السلام مصر.

30 - تعريف عام بدين الإسلام- الشيخ علي الطنطاوي - دار البشير، طنطا.

31 - نظرات في كتاب الله- للإمام حسن البنا- جمع وتحقيق الشيخ عصام تليمة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

32 – القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث– د. صلاح الخالدي– دار القلم، دمشق.

33 – مشكلة الشر ووجود الله– د. سامي عامري– مركز تكوين، السعودية.

صدر للمؤلف

1- متاع الغرور:

كتاب يحدثك عن حقيقة الحياة الدنيا في ميزان الله - عز وجل - ويحذرك من العواقب الوخيمة المترتبة على الانشغال بشهواتها والركون إليها، والاغترار بزينتها ويبين لك قيمة الزهد فيها واتخاذها قنطرة؛ للنجاة في الآخرة.

2- رمضان.. واهًا لريح الجنة:

كُتيب يجول بك في رحاب رمضان.. يبين فضله وأنواره، ويكشف روحانياته وأسراره، ويحفز لاغتنام أوقاته، ويدعوك إلى تنسم نفحات الجنان عبر هذا الشهر المبارك، رافعًا شعار الصحابي الجليل أنس بن النضر - رضي الله عنه - الذي هتف به في غزوة أحد (واهًا لريح الجنة).

3- قلب موصول بالله:

أصبح القلب الرباني عملة نادرة بين أناس تشكو من ظمأ الأرواح، وجفاف القلوب، وأسر الشهوات، وطول الغفلات، وقيود الماديات.. لذا جاء هذا الكتاب؛ ليحرر القلب من أغلاله وقيوده، ويطهره من دنسه وعيوبه؛ ليحلق بعدها في آفاق سامقة. وفيه تقرأ عشرين صفة للقلب الموصول بالله.

4- وربك فكبر (آية الكرسي.. سياحة في رحاب الكمال والجلال):

كتاب يدعوك إلى سياحة في رحاب أعظم آية في كتاب الله؛ ليقودك بعد التدبر والتفكر فيها إلى معرفة الله عزوجل بجلاله وعظمته وكبريائه وسلطانه، ومن ثم الخُضوع، والاستسلام، والانقياد التام والمطلق له.

5- هكذا علمني رمضان:

شهر رمضان مدرسة تربوية وواحة روحية يتلقى المسلمون فيها جرعات تعليمية نافعة ودروسًا إيمانية جامعة تفي بحاجات النفس، وتلبي متطلباتها النفسية.

وقد جمعت في هذا الكتاب عشرين خصلة تعلمتها في رمضان.

6- جنة الحياة:

كتاب يخبرك بوجود جنة أرضية في هذه الحياة وسط متاعب الحياة وشدائدها وآلامها.. جنة غراسها الإيمان بالله الذي يرتكز على معرفة راسخة بالله - تعالى -، ومتى خالط هذا الإيمان القلب وترسخت جذوره، أعطى ثماره كلّ حين بإذن ربّه، فيفيض على الأرواح بالأنس، ويسكب الطمأنينة في القلب، فتستعلي النفس على المشقات والمنغصات، وتتذوق أحلى ما في هذه الحياة.

تحت الإعداد:

1 - الآن وجدت قلبي

2 - قبسات من أنوار جزء عم

فهرس الكتاب